جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

بلاغة حروف المعاني في أحاديث العصبية الجاهلية في الكتب الستة

إعداد

د/ نجوى سيد سيد إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف- جامعة الأزهر

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

بلاغة حروف المعاني في أحاديث العصبية الجاهلية في الكتب الستة.

نجوى سيد سيد إبراهيم

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: NagwaSayed.2117@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان بلاغة حروف المعاني ودورها في توجيه المعنى لا سيما في كلام سيد الخلق سيدنا محمد-ﷺ-، وذلك من خلال دراستها في سياق أحاديث النبي – ﷺ – في ذم التعصب الجاهلي، والنهي عن كل مظاهره التي أصبحت تسود مجتمعات المسلمين اليوم بشكل ملحوظ مما قد يشكل تهديدًا خطيرًا على أمنها ووحدتها وسلامتها، ومن أبرز النتائج التي تم التوصل إليها: كان لحروف المعاني دور مؤثر في بناء الجمل من حيث دلالتها على المعاني المقصودة والتي لا يمكن أن تُؤدى بدونها، كما كان لحروف العطف خاصة (الواو،الفاء،أو) دورها البارز في ربط أجزاء جمل الأحاديث، فكانت بمثابة العُرى التي وصلت المعنى السابق باللاحق حتى تضامت أجزاؤها وصارت جملة واحدة، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون المنهج المعتمد هو المنهج الوصفيّ التحليلي الذي يُعنى بالكشف عن بلاغة حروف المعاني وتنوع دلالاتها في سياقاتها المختلفة، هذا بالإضافة إلى المنهج الاستقرائي الذي يُعنى باستقراء أحاديث ذم العصبية الجاهلية في كتب الصحاح الستة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، حروف المعاني، العصبية الجاهلية، الكتب الستة، توجيه المعنى.

The Rhetoric of the Letters of Meaning in the Hadiths of Pre-Islamic Fanaticism through the Six Books

Nagwa Sayed Sayed Ibrahim
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Beni Suef, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: NagwaSayed.2117@azhar.edu.eg

Abstract:
This research aims to demonstrate the eloquence of the letters of meaning and their role in conveying meaning, particularly in the speech of the Master of Creation, our Master Muhammad (peace and blessings be upon him). This research is conducted within the context of the Prophet's (peace and blessings be upon him) hadiths condemning pre-Islamic fanaticism and forbidding all its manifestations, which have become a noticeable phenomenon in Muslim societies today, potentially posing a serious threat to their security, unity, and well-being. Among the most prominent findings: The letters of meaning played an influential role in sentence construction, in terms of their significance for intended meanings that cannot be conveyed without them. The letters of conjunction, in particular (and, fa, or) also played a prominent role in connecting the parts of sentences in hadiths. They served as bonds that connected the preceding meaning to the subsequent meaning, until their parts were integrated and became a single sentence, The nature of the subject required that the adopted approach be the descriptive analytical approach, which is concerned with revealing the eloquence of the letters of meanings and the diversity of their connotations in their different contexts, in addition to the inductive approach, which is concerned with extrapolating the hadiths condemning pre-Islamic fanaticism in the six Sahih books.

Keywords: Rhetoric, letters of meaning, pre-Islamic fanaticism, The Six Books, Guiding the Meaning.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق وأشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الأخيار الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن حروف المعاني من القضايا المهمة، وذلك لأثرها البارز في التوجيه الدلالي، فلكل حرف من حروف المعاني دلالته الخاصة والتي تضفي بظلالها على المعنى في بناء الكلام التي نُسجت فيه، ولذلك قد لاقت حروف المعاني عناية فائقة من علماء العربية قديمًا في اللغة والتفسير والأصول على حد السواء؛ نظرًا لاختلاف المعنى وتفسير النصوص وتوقف فهم بعض الأحكام الفقهية على تحديد المعنى المقصود من هذه الحروف، ومن ثَم فإن حروف المعاني لها أثر بالغ في فهم الخطاب بحيث لا يستغني عنها عالم أو باحث ممن يهتمون بعلوم اللغة العربية وما يتصل بها؛ لأنها من الأدوات المهمة التي يحتاج إلى معرفة دلالالتها الفقيه واللغويّ والمفسِّر والمحدِّث وكل من كان له عناية بعلوم العربية، لذا ارتأيت أن أتخذ منها موضوعا للبحث **يهدف إلى بيان بلاغة حروف المعاني ودورها في توجيه المعنى** في كلام سيد الخلق، سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– من خلال دراستها في سياق أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– في ذم التعصب الجاهلي، والنهي عن كل مظاهره التي أصبحت تسود مجتمعات المسلمين اليوم بشكل ملحوظ مما قد يشكل تهديدًا خطيرًا على أمنها ووحدتها وسلامتها.

وقد جاء هذا البحث تحت عنوان: **(بلاغة حروف المعاني في أحاديث العصبية الجاهلية في الكتب الستة).**

ومن **أهم أسباب اختيار هذا الموضوع:**

١-أهمية حروف المعاني وأثرها البارز في التوجيه الدلالي.

٢-أهمية معالجة مشكلة العصبية الجاهلية؛ لكونها مظهرًا من مظاهر الأمراض الاجتماعية التي نهى الإسلام عنها وحذَّر منها؛ حفاظا على ترابط الأمة والأخوة الإيمانية الصادقة.

٣-ندرة احتفال الدراسات البلاغية التطبيقية الحديثة بحروف المعاني.

الدراسات السابقة للموضوع هي:

-لغة الحديث النبوي الشريف في ذم العصبية الجاهلية في ضوء علم اللغة النفسي، د/حنان عبد الغفار عباس الطحاوي، بحث في حولية كلية اللغة العربية بجرجا، جامعة الأزهر، العدد ٢٦، الجزء ٤، ٢٠٢٢م.

المنهج: اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون المنهج المعتمد هو المنهج الوصفيّ التحليلي فهو الذي يُعنى بالكشف عن بلاغة حروف المعاني وتنوع دلالاتها في سياقاتها المختلفة، هذا بالإضافة إلى المنهج الاستقرائي الذي يُعنى باستقراء أحاديث ذم العصبية الجاهلية في كتب الصحاح الستة، ولذلك فقد قمت بجمع الأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع، فبلغت سبعة عشر حديثًا، إلا أن طبيعة الدراسة قد اقتضت إدراج حديثين آخرين من كتاب مسند الإمام أحمد بن حنبل في المطلب الأول من المبحث الثالث: (الناس في الأصل أُمَّة واحدة)، وذلك لكونهما ينصَّان على رجوع الناس جميعا إلى أصل واحد وهو آدم -عليه السلام- وذلك مما يعضد دحض دعوى التفاضل بالأنساب، ولم أجد-بعد البحث- في كتب الصحاح الستة من الأحاديث ما ينصُّ على هذا المعنى باستثناء حديثين للإمام الترمذي قد تم دراستهما في المطلب الأول من المبحث الثاني: (النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب)؛ لكون المعنى الأم أو المحوري في الحديثين هو النهي عن التفاخر بالأنساب، وجاء النصُّ فيهما على أن الناس بنو آدم كبرهان ساطع على سقوط دعوى التفاخر، وتحريم وجودها في الإسلام.

<u>الهدف من البحث</u>: بيان بلاغة حروف المعاني ودورها البارز في توجيه المعنى.

<u>خطة البحث</u>: وقد بنيتُ البحث على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة فتتضمن: عنوان البحث، وأهميته، وسبب اختياره، والدراسات السابقة للموضوع، ومنهج الدراسة، وخطة الدراسة.

وأما التمهيد فيتضمن: مفهوم الحرف في اللغة والاصطلاح، والفرق بين حروف المعاني وحروف المباني، ومفهوم العصبية الجاهلية في اللغة والاصطلاح، وأثر حروف المعاني في أداء المعنى.

ثم جاءت المباحث الثلاثة على النحو التالي:

<u>المبحث الأول: النهي عن العصبية الجاهلية والتحذير منها.</u>

ويتضمن مطلبين:

الأول: المراد بالعصبية الجاهلية.

الثاني: تحريم العصبية الجاهلية والنهي عنها.

<u>المبحث الثاني: النهي عن التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب.</u>

ويتضمن المبحث مطلبين:

الأول: النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب.

الثاني: النهي عن الطعن في الأنساب.

<u>المبحث الثالث: التقوى أساس التفاضل عند الله.</u>

ويتضمن مطلبين:

الأول: الناسُ في الأصل أُمَّةٌ واحدةٌ.

الثاني: التفاضل في الإسلام بالتقوى والعمل الصالح.

<u>الخاتمة</u>: وفيها إيجاز لأبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

واللهَ العظيمَ أسأل التوفيق والسداد، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يستعملنا في طاعته وما يُرضيه سبحانه وتعالى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

التمهيد

(مفهوم الحرف في اللغة والاصطلاح، والفرق بين حروف المعاني وحروف المباني، ومفهموم العصبية الجاهلية في اللغة والاصطلاح، وأثر حروف المعاني في أداء المعنى)

أولا: **مفهوم الحرف في اللغة والاصطلاح**

معنى الحرف في اللغة: يقول ابن فارس: "الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول: حدُّ الشيءِ، والعُدُول، وتقديرُ الشيء، فأمَّا الحدُّ فحرْفُ كُلِّ شيءٍ حدُّه، كالسيف وغيره، ومنه الحَرْفُ وهو الوجْه، تقولُ: هو مِنْ أَمْرِهِ على حَرْفٍ واحِدٍ، أي طريقة واحدة، والأصلُ الثاني: الانحرافُ عن الشيءِ، يُقالُ: انحَرَفَ عنه ينْحَرِفُ انحِرَافًا، وحَرَّفْتُه أنا عنه، أي عَدَلْتُ به عنه، وذلك كتحريفِ الكلامِ، وهو عَدْلُهُ عنْ جِهتِهِ، والأصلُ الثالثُ: المِحْرافُ، حديدةٌ يُقَدَّرُ بها الجراحات عند العلاج"(١).

وفي لسان العرب لابن منظور الحَرْفُ في الأصل: الطَّرَفُ والجَانِبُ، وبه سُمِّي الحَرْفُ من حروف الهجاء، وحَرْفُ كُلِّ شيءٍ طرفُه وشَفِيرُه وحَدُّهُ، ومنه حَرْفُ الجبلِ وهو أعلاه، والحَرْفُ من الأبل: النجيبةُ الماضيةُ، وقيل هي الضامِرَةُ الصُّلْبَةُ شُبِّهت بحرفِ الجبلِ في شِدَّتِها وصَلابتِها(٢).

يتضح من هذه التعريفات لمادة (حَرَفَ) أنَّ معنى الحَرْفِ في اللغة يحتمل عدة معانٍ لغوية تدور حول معنى الجانب والحدُّ والشك والزيغ والميل والصرف والوجه الواحد.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت عبد السلام محمد هارون :٤٢/١، ٤٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور: (ح ر ف)، دار الحديث القاهرة ٢٠١٣.

معنى الحرف في الاصطلاح:

ورد لتعريف الحرف في الاصطلاح عدة تعريفات من أهمها، تعريف سيبويه، فالحرف عنده: "ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل"(١)، وعرَّفه الجرجاني بقوله: "الحرف هو ما دلَّ على معنى في غيره"(٢)، وكذلك ذكر المرادي في الجنى الداني أن الحرف هو: "كلمة تدل على معنى في غيرها فقط"(٣).

ثانيا: الفرق بين حروف المعاني وحروف المباني:

حروف المعاني: "هي التي تفيد معنى كسين الاستقبال وغيرها، وسُميت بها للمعنى المختص بها، أو لأنها توصل معاني الأفعال إلى الأسماء"، أمَّا حروف المباني: "هي التي بُني منها الكلمات، كزاي (زيد)"(٤)، مما يعني أن "حرف المعنى هو الذي يتضمن اللغة والجملة والكلمة والمقطع، وحرف المبنى هو الذي يتضمن الحركات والممدود والعلة والصحاح، والذي ينقسم كل منهما إلى ذاتين هما: حرف المعنى: التراكيب والمفردات، وحرف المبنى: الصوائت والصوامت"(٥).

(١) الكتاب، لأبي بشر عثمان بن قنبر (سيبويه)، ت عبد السلام محمد هارون: ١٢/١، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٦م.

(٢) معجم التعريفات، للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت محمد صديق المنشاوي: ٧٦، دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، ت د فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل: ٢٠، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط١ ١٩٩٢م.

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ت د عدنان درويش، محمد المصري: ٣٥٩، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ ١٩٩٨م.

(٥) أسرار الحروف، أحمد رزقة: ١٢، دار الحصاد للنشر والتوزيع بدمشق، ط١ ١٩٩٣م.

ثالثا: مفهموم العصبية الجاهلية في اللغة والاصطلاح

معنى العصبية في اللغة: العَصَبَةُ في اللغة مشتقة من العَصْبِ، يقول ابن فارس: "العين والصاد والباء أَصْلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على رَبْطِ شيءٍ بشيءٍ، مُستطيلا أو مستديرًا، ومنه سُمِّيت العَصَبَةُ، وهم قرابة الرَّجُلِ لأبيه وبني عمِّه، وكذلك كل شيء استدار حول شيءٍ واستكفَّ فقد عَصِبَ به"(١)، وعند الفيروزآبادي: "العَصْبُ هو الطيُّ واللَيَّ والشدُّ"(٢).

ومعنى العصبية عند ابن منظور: "أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتآلب معهم على مَن يناويهم ظالمين كانوا أم مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمَّعُوا، والعصبيُّ هو الذي يغضب لعَصَبَتِه ويحامي عنهم، والتعصب: هو المحاماة والمدافعة"(٣).

فالمعنى اللغوي للعصبية يدور حول معاني الميل الشديد للشيء والالتفاف حوله بقوة، والتجمع، والارتباط، والإحاطة.

معنى العصبية في الاصطلاح: "غلو في التعلق بشخص، أو فكرة، أو مبدأ، أو عقيدة بحيث لا يدع مكانًا للتسامح، وقد يؤدي إلى العُنف والاستماتة "(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت عبد السلام محمد هارون : ٣٤٠/٤.

(٢) القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت محمد نعيم العرقوسي: ١١٥، مؤسسة الرسالة، ط٨ ٢٠٠٥م.

(٣) لسان العرب: مادة (ع ص ب).

(٤) معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، أ.د فاروق عبده فلية، د أحمد عبد الفتاح الزكي: ١٠٥، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالاسكندرية.

معنى الجاهلية في اللغة: مصدر صناعي مأخوذ من الجاهلي المشتق من الجهل، "الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خِلاف العِلْم، والآخر الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمأْنينة"(١).

معنى الجاهلية في الاصطلاح: قال ابن الأثير: "هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه وتعالى ورسوله- صلى الله عليه وسلم- وشرائع الدين"(٢).

فالعصبية الجاهلية استنادًا إلى ما سبق ذكره من تلك التعريفات لا تخرج عن معنى الاجتماع والتعاضد والتناصر على حق كان أم على باطل، والاندفاع بقوة للمحاماة عن ذوي القربى بلا تعقل ولا بصيرة، فمعها تنعدم معايير الحق والعدل مما يوقع المرء في مستنقعٍ من الظلم للعباد، وردِّ الحق، والانتصارِ للباطل.

رابعا: أثر حروف المعاني في أداء المعنى

إن حروف المعاني لها دور كبير وفعَّال في بناء الجملة العربية، بل هي حجر الأساس للتراكيب والتعابير في الجملة، من حيث التوجيه الدلالي للمعاني المقصودة والتي لا يمكن أن تُؤدى بدونها أو من حيث الربط بين أجزاء الجملة الواحدة أو ربط جمل النصِّ بعضها ببعض؛ لتكوِّن بمجموعها لُحمة واحدة متماسكة، يتصل ثانيها بأولها ولاحقها بسابقها، ومما يؤكد أهمية حروف المعاني قول السيوطي: "وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت عبد السلام محمد هارون : ٤٨٩/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ١٧٦، دار ابن الجوزي، ط١ ١٤٢١هـ.

والظروف، اعلم أنَّ معرفة ذلك من المهمات المطلوبة؛ لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ:٢٤]، فاستعملت (على) في جانب الحق و(في) في جانب الضلال؛ لأن صاحب الحق مستعل يصرف نظره كيف شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه؟"[(١)]، ولأثر حروف المعاني الملموس في دلالة المعنى قد أولى علماء العربية قديما عناية خاصة بها، فأفردوا لها تآليف مستقلة، أمثال الرُّمَّانيّ في (معاني الحروف)، والمالقي في (رصف المباني في شرح حروف المعاني)، والمُرادي في (الجنى الداني في حروف المعاني)، وابن هشام في (مغني اللبيب).

فمن حروف المعاني ما يقوم بالربط بين أجزاء الجملة أو الجمل كحروف العطف وحروف الشرط، وكذلك حروف الجر التي تربط الأفعال اللازمة بمفعولها حين يكون المراد الإخبار عمن وقع عليه الفعل وليس مجرد الإخبار بوقوع الفعل من الفاعل، وتختلف معاني حروف الجر تبعا للسياق التي صيغت فيه والمقام الذي اقتضاها، كما أن حروف النفي لها دور مهم في تحديد زمن الفعل إذا كان تركيب الجملة مبنيًا على أحد حروف النفي (ما، لا، لم، لما، لن)، وكذلك حرفي الاستفهام (الهمزة، هل) اللذان يعتبران أصلا للمعنى الاستفهامي، وهما من حروف المعاني التي تدخل على الجملة الخبرية فتنقل معناها إلى الإنشائية، وغير ذلك من المعاني التي تقوم حروف المعاني بدور بارز في تأديتها كمعاني التوكيد والاستثناء والتحضيض والتمني والترجي والقسم والتشبيه والاستدراك

(١) الإتقان في علوم القرآن، للحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت مركز الدراسات القرآنية: ١٠٠٤/٣، المملكة العربية السعودية، المانة العامة للشؤون العلمية.

والنداء وغيرها من المعاني التي لا تكاد تخلو منها جملة في أي كلام منظوم أو منثور، والتي لا يتسع المقام لذكرها وتفصيلها، فلكل حرف من حروف المعاني دوره في توجيه المعنى المراد بصورة لا يمكن معها استبداله بغيره لأداء نفس المعنى المرام؛ لأن لكل حرف منها خصائصه وميزاته ودلالاته التي تفرد بها عن غيره من بقية حروف المعاني.

المبحث الأول: النهي عن العصبية الجاهلية والتحذير منها.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: المراد بالعصبية الجاهلية.

المطلب الثاني: تحريم العصبية الجاهلية والنهي عنها.

المطلب الأول: المراد بالعصبية الجاهلية

إن من التعصب ما يكون محمودًا ومنه ما يكون مذمومًا منهيًا عنه، فالتعصب للدين ونصرة الحق، ودفع الباطل تعصب محمود بلا شك بل هو مأمور به، أمَّا غير ذلك فهو تعصب أعمى وحميَّة جاهليَّة قد نهانا الإسلام عنها، فالعصبية التي يرفضها الشرع ويحرِّمها أن يُعين المرء قومه أو أهله على الظلم، وينصرهم على غير حق، أمَّا حبُّ الرجل لقومه وعشيرته، ومد جسور التواصل والتراحم بينه وبينهم فهذا من الدين، فواجب المسلم أن ينصر الحق أينما كان، وأن يحارب الباطل بكل ما أوتي من قوة حتى لو كان مصدره أهله وعشيرته.

-عن سلمةَ بنِ بِشْرٍ الدِّمشقيِّ، عن بنتِ واثلةَ بنِ الأسقع أنها سَمِعتْ أباها يقولُ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما العَصَبِيَّةُ؟ قال: "أنْ تُعِينَ قومَكَ على الظُّلْمِ".
رواه أبو داود[1]

فالحديث الشريف يوضح معنى العصبية المذمومة التي نهى الإسلام عنها، وهي القائمة على نصرة الأهل والعشيرة على الظلم، وإعانتهم على باطل، وقد قدَّم الصحابي -رضي الله عنه- النداء على السؤال في قوله: (يا رسولَ اللهِ)؛ تأدبا وتلطفًا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ناداه بحرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد رغم قربه منه؛ وذلك إشعار منه بعظمته -صلى الله عليه وسلم-، وبُعد مكانته، ثم دعاه بالرسالة المضافة للفظ الجلالة؛ للدلالة على تعظيم الرسول وتشريفه، وبيان مكانته من ربه -جلَّ وعلا-، ثم السؤال باسم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب العصبية (٥١١٩)، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب العصبية (٣٩٤٩)، وتحفة الأشراف (١١٧٥٧).
-ينظر: سنن ابن ماجة بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، ت الشيخ خليل مأمون شيحا: ٣٢٧/٤، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط١ ١٩٩٦م.

الاستفهام (ما) التي يُطلب بها بيان حقيقة المسمى، والوقوف على ماهيته، والمسؤول عنه هنا بيان معنى العصبية المذمومة في الإسلام.

فكان جوابه –صلى الله عليه وسلم– غاية في الإيجاز وإصابة المعنى، فقال–عليه الصلاة والسلام–: "أَنْ تُعِينَ قومَكَ على الظُّلْمِ"، وأصل الكلام: العصبية أَنْ تُعِينَ قومَكَ على الظُّلْمِ، فحُذِفَ المسند إليه؛ لقوة الدلالة عليه في السؤال، وحتى يتوفر الكلام على المطلوب وهو بيان معنى العصبية المذمومة، والمصدر المؤول من (أَنْ) المصدرية والفعل المضارع في محل رفع خبر للعصبية، وإيثار التعبير بالمصدر المؤول دون الصريح؛ لدلالة المضارع على معنى الاستقبال والتجدد والحدوث، مما يفيد أن حدوث ذلك الفعل وهو إعانة قومه على الظلم وتجدده منه في أي وقت يُعدُّ من العصبية الجاهلية ولو كان لمرة واحدة، وليس شيء من هذا المعنى في المصدر الصريح الدال على الحدث من غير ارتباط بزمن، مما يفيد دوام وقوع الحدث وثبوته، وهذا غير مراد، بل إن مجرد استعداد المتعصب لتكرار الفعل وحدوثه منه ولو لمرة واحدة يُعدُّ تعصبًا أعمى يأثم بسببه؛ لأنه إعانة قائمة على الظلم والجور، فكان تعدي الفعل (تُعين) لمفعوله الثاني بحرف الجر (على) في قوله: (على الظلم)؛ تمكنًا لمعنى الاستعلاء والسيطرة وانتهاك حقوق الغير بغيًا وعدوانًا، كما أفاد التعريف بـ(أل) الاستغراق، لتشمل جميع المعاني المندرجة تحت حقيقة الظلم، فهذه عصبية نهى الله عنها؛ لأن من شأنها إيقاع الوهن والتفكك وتغلغلهما في جسد الأمة المسلمة.

–وفي المقابل هناك عصبية محمودة وهي إعانة الأهل والعشيرة على البر والتقوى، وتوطيد صلة الرحم والتراحم فيما بينهم، **فقد روى ابن ماجة في سنده عن عَبَّاد بنِ كَثير الشَّاميِّ، عن امرأة منهم يُقال لها فَسِيلةُ. قالت: سمعتُ أبي يقولُ: سألتُ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–، فقلتُ: يا رسول اللهِ، أَمِنَ**

العصبيَّةِ أنْ يُحبَّ الرجلُ قومَهُ؟ قال: "لا، ولكنْ مِنَ العصبيَّةِ أنْ يُعينَ الرجلُ قومَهُ على الظُّلْمِ". رواه ابن ماجة(١)

فالسؤال هنا جاء بصيغة مختلفة عن السؤال في الحديث السابق، فالمستفهم عنه ليس معنى العصبية مطلقا بل عن حُبِّ الرجل لقومه أهو من العصبية المنهي عنها أم لا؟، فيقول: "أَمِنَ العصبيَّةِ أنْ يُحبَّ الرجلُ قومَهُ؟"، فجاء الاستفهام بالهمزة –التي لطلب التصديق– الداخلة على حرف الجر (مِنْ) البيانية، أي أالذي من جنس العصبية أنْ يُحبَّ الرجلُ قومَهُ؟"، وسؤال الصحابي –رضي الله عنه– بتلك الصيغة يشير إلى أنه يدرك جيدًا أن تعصب الرجل لأهله في الباطل مُحرَّم، لكنه يجهل ما إذا كان حُبُّه لهم يدخل في جنس العصبية الجاهلية أم لا، وهو بهذا يحتاط لنفسه حتى لا يقع في المحرَّم دون أن يدري، مما يعكس بوضوح شدة حرص الصحابة –رضوان الله عليهم– على تحري العلم، وعظم اجتهادهم في طلب النجاة، ومن ثم دخلت الهمزة على المسند (من العصبية) دون المسند إليه المصدر المؤول (أنْ يُحبَّ الرجلُ قومَهُ)؛ لأنه أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه، وإيثار التعبير بالمصدر المؤول بـ(أنْ الناصبة الداخلة على المضارع) دون الصريح؛ لدلالة المضارع على معنى الاستقبال والتجدد والحدوث، مما يفيد أن حُبَّ الرجل لقومه أمر يتجدد من آن لآخر، قد يزيد وقد ينقص إلا أنه مستمر لا يتوقف ولا ينقطع أبدا.

فجاء جوابه –ﷺ– بالنفي بحرف الجواب (لا) النافية؛ لإفادة انتفاء دخول حُبِّ الرجل لقومه في جنس العصبية المذمومة التي نهى عنها الإسلام، بل هي من صلة الرحم التي دعا إليها الإسلام وأكدَّ عليها، ولم يكتف –صلى الله عليه وسلم– بهذا الجواب المكافئ للسؤال، بل استدرك وأوضح له ولكل المسلمين

(١) أخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب العصبية (٣٩٤٩).

مفهموم العصبية التي نهى عنها الإسلام، فقال: "ولكنْ مِنَ العصبيَّةِ أنْ يُعينَ الرجلُ قومَهُ على الظُّلْمِ"، فالواو للمغايرة، فأفادت عطف هذه الجملة على جملة الجواب المحذوفة، وتقديرها: (لا يدخل حبُّ الرجل لقومه في العصبية)، فالمعنى متغاير بين الجملتين مع اشتراكهما في تحديد مفهوم العصبية تحديدا دقيقا لا لبس فيه، ثم كان الاستدراك بـ(لكنْ) التي تفيد أن ما يأتي بعدها مخالف لما قبلها؛ حرصا منه –صلى الله عليه وسلم– على تعليم أمته أمور دينها، وعنايته الشديدة على تجنبها ما يكون سببا في هلاكها، بحيث لا يندفع المرء بدافع حبه الشديد لقومه إلى المحاباة لقومه والمدافعة عنهم في الحق والباطل، لذا كان تقديم المسند: (من العصبية) على المسند إليه المصدر المؤول (أن يُعين الرجل قومه على الظلم)؛ لأنه الغرض الأهم المسوق له الكلام، وناسب ذلك وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، فمقتضى الظاهر أن يقال: (ولكن منها)، إلا أن إيثار الاسم الظاهر على الضمير يُعدُّ زيادة في تمكين المعنى وترسيخه في النفوس؛ لأن الاسم الظاهر أبلغ في إبراز المعنى وتقريره في الوجدان من التعبير بالضمير.

–وفي بيان معالم العصبية الجاهلية ما رواه أبو داود في سننه، **عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: قال النبيُّ –** ﷺ: "**مَن نَصَرَ قومَهُ على غيرِ الحقِّ فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يُنْزَعُ بِذَنَبِه**". رواه أبو داود[1]

(١) حديث حسن، أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب العصبية (٥١١٧)، وأحمد في مسنده (٣٧٢٦)، والطيالسي (٣٤٤)، والبيهقي ٢٣٤/١٠ من طريق شعبة عن سماك بن حرب.

–ينظر: سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ت شعيب الأرنؤوط، محمد كامل: ٤٣٩/٧، دار الرسالة العالمية دمشق، ط ٢٠٠٩م.

الحديث كله بمثابة جملة واحدة، لأن الشرط وجوابه جملة واحدة، وأول هذه الجملة اسم الشرط (مَنْ) وجملة الشرط: (نصر قومه على غير الحق)، ثم جواب الشرط (فهو كالبعير الذي رُدِّي)، ثم المعطوف على جملة جملة الجواب: (فهو يُنزع بِذَنَبِه)، والحديث فيه تحذير شديد من نُصرة الباطل دون التثبت من الحق، فقوله –صلى الله عليه وسلم–: (على غير الحق) يُراد به الباطل، فلم ينص –عليه السلام– على الباطل بلفظه الصريح بل بانتفاء ضده؛ وذلك لأن طريق الحق واحد وهو صراط الله المستقيم، بخلاف الباطل فله طرق متعددة، وسُبل متشعبة، ولهذا يفرد الله –عزَّ وجلَّ– الحق ويجمع الباطل في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد بُني الحديث على التشبيه التمثيلي باستخدام حرف التشبيه (الكاف) التي هي أصل في التشبيه، حيث شُبِّه هيئة الذي ينصر قومه على الباطل فأوقع نفسه في الهلكة بتلك النصرة الباطلة، بهيئة البعير الذي سقط في بئر فيُخرج منه بالسحب والنزع بذنبه، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الوقوع في شيء مُهلك محفوف بالمخاطر، وسبل الخروج منه تزيد من هلكته، فكما أن نزع البعير من ذنبه لإخراجه من البئر لا ينفعه بل يزيده ضررًا، كذلك نُصرة الرجل قومه على الباطل لا ترفع من قدره بقدر ما تردي به في مهاوي الذنوب والآثام، والفاء في جملة: (فهو كالبعير الذي رُدِّي)[1] داخلة على جملة جواب الشرط الاسمية، لربط الجواب بالشرط، وفي بناء الفعل (رُدِّي) للمفعول؛ إشارة إلى سرعة إردائه وسقوطه في مهوى الآثام المُهلكة، هذا بالإضافة إلى ما دلَّت عليه جملة العطف

(١) الرَّدى: الهلاك، رَدِيَ: بالكسر يَرْدى رَدىً: هلك فهو ردٍ. لسان العرب، مادة (ر د ي).

(فهو يُنزع بِذَنَبِه)[١] المعطوفة بالفاء على جملة الجواب؛ فأفادت ترتب مزيد من الهلاك فور وقوعه في مهوى الذنوب بسبب نصرته لقومه على الباطل، وفي الجملة إشباع للمعنى ومزيد تقرير يجسده أولا ذكر المسند إليه (هو) مع جواز حذفه؛ زيادة في تقرير المعنى، وإبرازه واضحا؛ نظرًا لأهميته وخطورته، ثم مجيء حرف الجر (الباء) بمعنى (مِن) أي: (من ذنبه)، ومجيء الباء التي للإلصاق مكان (مِنْ) يومئ إلى قوة الملابسة والملازمة بين الحدث (النزع) وبين المنزوع (الذَنَبِ) واندماجهما معا؛ مبالغة فيه حتى إن محاولة إخراجه مما أقحم نفسه فيه قد تودي بهلاكه لا محالة، هذا فضلا عن إيثار التعبير بالفعل المضارع المبني للمجهول (يُنْزَعُ) دون (يُسْحَبُ) أو (يُجَرُّ)؛ للدلالة على معنى الجذب المتكرر بشدة وكأنه يُقتَلَع من مكانه اقتلاعا؛ مبالغةً في تأكيد هول الهلكة وشدتها وصعوبة الخلاص منها، والجملة كلها كناية عن تلبس المتعصب بخطأ يَصْعُبُ التخلص منه، لأنه ارتكب إثمًا لا يستطيع الخلاص منه إلا بردِّ المظالم التي أعان قومه فيها إلى صاحبها.

–عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ –صلى الله عليه وسلم–، أنَّه قال: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعةِ، وفَارَقَ الجماعَةَ، فماتَ، ماتَ مِيتَةً جَاهليَّةً، ومَنْ قَاتَلَ تحتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يغضبُ لِعَصَبَةٍ، أوْ يدعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ ينْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهليَّةٌ، ومَنْ خَرَجَ على أُمَّتِي، يَضرِبُ برَّها وفاجِرَها ولا يتحاشَى مِنْ مُؤمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فليس مِنِّي ولستُ مِنْهُ". رواه مسلم[٢]

---

(١) نَزَعَ : النون والزاي والعين أصلٌ صحيح يدلُّ على قَلْعِ شيءٍ، والمِنْزَعُ: الشديد النَّزْع.
ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت عبد السلام محمد هارون : ٤١٥/٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند نزول الفتن (١٨٤٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١١٦)، وفي الكبرى (٣٥٧٩)، وابن ماجة في الفتن (٣٩٤٨)، =

معنى الحديث أنَّ من خرج عن طاعة ولي الأمر وخالف جماعة المسلمين ثم مات وهو على هذه الحالة فقد مات على الفرقة والفوضى والضلال كالجاهليين في أنهم كانوا فِرقًا، لا يطيعون أميرًا، ولا يتفقون على شيء، ومن قاتل تعصبًا على غير بصيرة، يغضب لعصبية لا لنصرة الدين والحق بل لمحض التعصب لقومه كما كان يقاتل أهل الجاهلية، فقُتِل على ذلك، فقتلته قِتلةٌ جاهليةٌ، ومن خرج على جماعة المسلمين يضرب التقي والفاجر ولا يتورع أو يبالي لذلك، ولا يفي بعهد الذميين الذين لهم عهد وأمان من المسلمين، فخرج يقتلهم كما يقتل المسلمين بلا تورع، فليست له ذمة ولا حرمة بل إن ظُفِرَ به قُتل(١).

و(مَنْ) في قوله: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعةِ) اسم شرط مبتدأ، وفعل الشرط جملة: (خَرَجَ مِنَ الطَّاعةِ)، و(مِن) ابتدائية بمعنى أن ابتداء هجره لجماعة المسلمين وانشقاقه عنهم يبدأ من لحظة خروجه عن طاعة ولي الأمر أو الأمير، وتعريف الطاعة بـ(أل) يفيد أنها الطاعة المعروفة المشهورة بدخول المسلمين تحت مظلتها، والمأمورون بعدم الخروج عنها، وهي طاعة مَن تولى أمر جماعة المسلمين على وجه صحيح من وجوه الولاية الشرعية، فيُحذَر على المسلم الخروج عن الطاعة حتى لا تنزلق الأمة في مستنقع من الخلاف والتشرذم

=

وعبد الرزاق في مصنفه ٣٣٩/١١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤٦٢/٧، وأحمد في مسنده ٢٩٦/٢، ٣٠٦، ٤٨٨، وابن حبان في صحيحه (٤٥٨٠).

-ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ١٧٣/٣٢، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط١ ١٤٣٥هـ.

(١) السابق: ١٦٨/٣٢: ١٧٢. بتصرف

والفرقة، والجملة كناية عن معصية الحاكم ومحاربته والسعي في حلِّ بيعته التي حصلت له.

وجملة: (وفَارَقَ الجماعَةَ) توكيد لمضمون معنى الخروج والانشقاق في الجملة قبلها؛ لأن الخروج عن طاعة ولي الأمر يستلزم مخالفة جماعة المسلمين، فكان مقتضى الظاهر الفصل لكمال الاتصال، أما العطف بـ(الواو) بين المؤكِد والمؤكَد يفيد معنى الارتقاء في الخروج على طاعة الأمير حتى مفارقة جماعة المسلمين بصفة عامة؛ لتأكيد معنى انصرافه التام وخروجه الكامل عن صفوف المسلمين وجماعتهم، وجملة (فمات) معطوفة بالفاء على ما قبلها عطف ترتيب، أي مات وهو على تلك الحالة من الخروج والمفارقة، فتلاءم ذلك ومعنى جملة الخبر –جواب الشرط– (ماتَ مِيتَةً جَاهليَّة)؛ أي مرتكبًا كبيرة من الكبائر، يقول القرطبيُّ: "فإنَّ مَن مات على تلك الحالة مات على مثل حالهم مرتكبًا كبيرةً من الكبائر، ويُخاف عليه بسببها ألا يموت على الإسلام"(١)، وقد أشبه الجاهليَّ في تلك الميتة؛ للردع والزجر والتنفير من الخروج عن طاعة الإمام ومفارقة جماعة المسلمين.

وقوله – ﷺ –: "ومَنْ قَاتَلَ تحتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يغضبُ لِعَصَبَةٍ، أوْ يدعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ ينْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهليَّةٌ" استئناف لمعنى جديد، والواو الداخلة على الجملة واو الاستئناف، وهي التي تعطف القصة على القصة(٢)،

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام الحافظ أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت محيي الدين ديب مستو، يوسف علي بديوي: ٥٩/٤، دار ابن كثير دمشق–بيروت، ط١ ١٩٩٦م.

(٢) وفي إفادة واو الاستئناف عطف المعنى على المعنى أو القصة على القصة قال أبو علي الفارسي: "من قرأ : (وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ) من قول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير﴾[البقرة:٢٧١]، =

والمعنى مضموم إلى ما قبله داخل معه في التحذير والوعيد، والمراد بالعُمِّيَّة : "الضلالة، وهو الأمر الأعمى كالعصبية لا يستبين ما وجهه"[1]، وجملة (ومَنْ قَاتَلَ تحتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ) كناية عن القتال على غير هدى وبصيرة تعصبًا كقتال الجاهليَّة بحيث لا يُعرف فيه المُحق من المُبطل، كما أن ظرف المكان (تحت) يؤكد معنى الانقياد التام والتبعية المضللة، وجملة: (يغضبُ لِعَصَبَةٍ) جملة حالية من الفاعل المستتر في الفعل (قاتل) تكشف عن معنى القتال بغير بصيرة،

=

فرفع، كان رفعه من وجهين، أحدهما: أن يجعله خبر مبتدأ محذوف، تقديره: (ونحن نكفرُ عنكم من سيئاتكم)، والآخر: أن يستأنف الكلام ويقطعه مما قبله، فلا يجعل الحرف العاطف للاشتراك ولكن لعطف جملة على جملة"، وقال الزركشي تعقيبا على قول الله تعالى: ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[الحج:٥]، قال: "والظاهر أنها الواو العاطفة؛ لكنها تعطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب لمجرد الربط، وإنما سُميت واو الاستئناف؛ لئلا يتوهم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها"، وقد ذكر الألوسي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[الشعراء:١٠]، أنه" كلام مستأنف مقرر لسوء حالهم، ومسلٍ له –صلى الله عليه وسلم– أيضا، لكن بنوع آخر من أنواع التسلية على ما قيل، و(إذ) منصوب على المفعولية بمقدر خوطب به النبي–صلى الله عليه وسلم– معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة".

ينظر: الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الحسين بن عبد الغفار الفارسي النحويّ، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض: ٢٠٣/٢، دار الكتب العلمية بيروت–لبان، ط١ ٢٠٠٧م– البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم: ٤٣٧/٤، مكتبة دار التراث بالقاهرة– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: ٦٣/١٩، دار إحياء التراث العربي بيروت– لبنان.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام الحافظ أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت محيي الدين ديب مستو، يوسف علي بديوي: ٥٩/٤.

وتؤكد معنى الحميَّة والتعصب الأعمى لعَصَبَة، والعصبة هم: "الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يعصِّبونه ويتعصب بهم، أي يُحيطون به ويشتدُّ بهم"(١)، وجملتي: (أوْ يدعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ ينْصُرُ عَصَبَةً) معطوفتان على جملة الحال قبلهما بـ(أو) التي للتفصيل(٢)؛ فتفيد تفصيل الإجمال في قوله: (رايَةٍ عُمِّيَّةٍ)، أي أن هذه الأمور الثلاثة (يغضبُ لِعَصَبَةٍ، أوْ يدعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ ينْصُرُ عَصَبَةً) تفصيل وتوضيح لمعنى القتال التعصبي القائم على غير بصيرة وهدى.

وجملة: (فقُتِلَ) معطوفة على فعل الشرط: (قَاتَلَ تحتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ) بالفاء التي طوت ما بين الفعلين من أحداث، وأبرزت الحركة السريعة والانكباب الجاد على القتال بدافع التعصب للقوم دون فتور أو توقف أو انشغال عنه، فهو اندفاع بلا تريث ولا نظر، فتلاءم ذلك وبناء الفعل للمجهول؛ للدلالة على سرعة توالي الأحداث دون أن يتخللها ما يشغله أو يردَّه عن غايته حتي يُقتل وهو على هذه الحالة من التعصب الأعمى، وليتوفر الكلام على القتل دون النظر إلى القاتل، وقوله: (فَقِتْلَةٌ جَاهليَّةٌ) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: (فَقِتْلَته قِتْلَةٌ جَاهليَّةٌ)، والفاء واقعة في جواب الشرط، وحذف المسند إليه من جملة الجواب قد منح العبارة قوة وجزالة وسرعة تتناسب وسوء العاقبة المترتبة على التعصب القائم على باطل، فضلا عن دلالة اسمية الجملة على الثبوت والدوام.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ٦١٩، دار ابن الجوزي، ط١ ١٤٢١هـ.

(٢) من معاني أو: تفصيل الإجمال.

-ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، للإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، ت محمد محيي الدين عبد الحميد: ٧٨/١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا-بيروت ١٩٩١م.

وقوله –عليه السلام–: "ومَنْ خَرَجَ على أُمَّتِي، يَضرِبُ برَّها وفاجِرَها ولا يتحاشَى مِنْ مُؤمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فليس مِنِّي ولستُ مِنْهُ"، معطوف على جملتي الشرط السابقتين بالواو التي يُستأنف بها معنى جديدًا، فأفادت الواو عطف المعنى على المعنى، وجملة: (خَرَجَ على أُمَّتِي) فعل الشرط، وتعدي الفعل (خرج) بحرف الجر (على) قد أكسبه معنى الظلم والبغي والتعدي، بمعنى أنه خروج مبني على تطاول واستعلاء، وتجاوز وطغيان، ففرق بين تعدي الفعل (خرج) بـ(مِن) في قوله: (خَرَجَ مِنَ الطَّاعةِ) وبين تعدي الفعل بـ(على) هنا، ثم وقوع هذه المعاني– الظلم والبغي والتعدي– على لفظ (أُمَّتِي) مضافًا إلى ضميره –صلى الله عليه وسلم– يومئ بسوء عاقبة مرتكب هذه الكبائر التي ذكرها النبيُّ–عليه السلام– في قوله: " يَضرِبُ برَّها وفاجِرَها ولا يتحاشَى مِنْ مُؤمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ"، فجملة: (يَضرِبُ برَّها وفاجِرَها) جملة حالية تكشف هيئة خروج هذا الطاغي، وتبرز كيفية تطاوله وبغيه على المسلمين وغيرهم، وأول صور هذا البغي ضربه للمؤمن البرّ التقيّ وكذلك الفاجر المُسيء، فأفاد الربط بالواو بينهما عموم وقوع ظلمه على المسلمين جميعا دون تفرقة بين بَرٍّ وفاجر، وتكرار ذلك منه ومزاولته دون فتور أو توقف، تجددًا تجسده صيغة المضارع في الفعل (يضرب)، فضلا عن دلالتها على استحضار صورة مشهد الضرب والتعدي، وتجسيد أحداثه وكأنها حاصلة مشاهدة.

وجملتا: (ولا يتحاشَى مِنْ مُؤمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ) حالان معطوفتان على جملة الحال (يَضرِبُ برَّها وفاجِرَها) بالواو؛ للتوسط بين الكمالين ووجود المناسبة المسوغة للعطف؛ وهي إبراز مشهد تماديه في الظلم دون مبالاة أو خوف من عقوبة، فهو لا يراعي حق المسلم، ويستحل ضربه بل وقتله، كما لا يراعي حق الذميّ الذي له عهد ذمة وأمان من المسلمين، بل ينقضه ويقتله كما يقتل المسلمين، ومجيء الوصل بالواو بين جمل الحال تفيد استقلال كل واحدة منها بشناعة الذنب وهول المعصية، فصار كل منهم أصلا بنفسه استحق

عليه العقوبة التي سيأتي بيانها في جواب الشرط، وفي هذا من التهويل والتفظيع ما فيه، بالإضافة إلى تكرار حرف النفي (لا) في قوله: (ولا يفي) مع جواز حذفه بعد الواو العاطفة؛ لتوكيد النفي السابق وإفادة الاحتراس من توهم تعلق الذنب بالمجموع لا بكل واحدة منهما على حدة.

وجواب الشرط قوله: (فليس مِنِّي ولستُ مِنْهُ)، ومعنى التبري كما يقول القرطبي: "هذا التبري ظاهر في أنه ليس بمسلم، وهذا صحيح إذا كان معتقد الحِلِّيَّة في ذلك، وإن كان معتقد التحريم فهو عاصٍ من العصاة مرتكب كبيرة، فأمره إلى الله تعالى..... ويحتمل أن يكون المعنى: ليس على طريقتي، ولست أرضى طريقته"(١)، ومجيء الفاء في جملة الجواب للترتيب والتعقيب والتسبيب؛ بمعنى أن الخروج على أمة المسلمين، وقتل المؤمن منهم والعاصي، ونقض عهد أهل الذمة وقتلهم يعقبه ويترتب عليه ويتسبب عنه تبري الرسول – ﷺ – من هذا الباغي؛ لخروجه عن هديه – ﷺ – ونهجه وطريقته.

وقد بُني الحديث الشريف على ثلاث جمل شرطية، وكل جملة منهم مكونة من عدة جمل وُصِل بينها بحروف العطف (الواو–الفاء–أو)، كما أن الحديث الشريف يحذو في صياغته حذوًا واحدا، ورغم الاختلاف الشديد بين الصور والمعاني إلا أنها توشك أن تكون متطابقة ومتقاربة، تتآلف وتتقارب بشريف النظم، وهذا ما أسماه الباقلانيُّ: (تأليف المختلف)، وقال عنه: "وفنون من الأمر شتَّى، مختلفة تألف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعليِّ الضم"(٢)، فالحديث من قبيل تأليف المختلف؛ لأنه جمع معانيَ متباعدة ربط بينها شريف النظم، فالمعنى

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام الحافظ أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت محيي الدين ديب مستو، يوسف علي بديوي: ٦٠/٤.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد الطيب، ت السيد أحمد صقر: ٣٠٠، دار المعارف بمصر.

الأول: مخالفة إجماع الأمة والخروج عن طاعة ولي الأمر، والمعنى الثاني: القتال لأغراض فاسدة وبواعث باطلة، والمعنى الثالث: ظلم الرعية دون تفرقة بين مسلم وذميّ، والخيط الجامع لتلك المعاني كلها هو الحث على وحدة الأمة، وتعزيز مبدأ الأخوة بين المسلمين، والاجتماع على نصرة الدين والحق، وإلا تفرقت الأمة، وعادت إلى جاهليتها الأولى، ودبَّ فيها الخلاف الذي يؤذن بضعفها وزوال ريحها.

المطلب الثاني: تحريم العصبية الجاهلية والنهي عنها

قد نهى الإسلام عن العصبية القبلية التي من شأنها غرس بذور الشقاق بين المسلمين، فالمسلم الحق لا يتبع أي عصبية قبلية أو ينتصر لها، وإنما يجب أن تكون نصرته لإخوانه المسلمين على الحق وردّ الظلم، ويكون ولاؤه للإسلام والمسلمين وليس إلى قومه وقبيلته؛ لأن هذا عامل من عوامل الهدم للدين والمجتمع، ولقد آخى النبي –صلى الله عليه وسلم– بين المهاجرين والأنصار، وقامت بينهما لأول مرة في تاريخ العرب أخوة أعظم من أخوة الدم والنسب، وهي أخوة الدين، فأذابت كل الخلافات، وأسقطت جميع الفوارق بينهم، ولم يبق إلا حميَّة الإسلام، فرابطة الدين والعقيدة هي أقوى رابطة وأسمى رابطة، وبها تتحقق وحدة المسلمين، وتقوى شوكتهم.

–عن الحارث الأشعريّ أن النبيَّ–صلى الله عليه وسلم–قال: "وأنا آمُرُكُمْ بخمسٍ اللهُ أمرني بِهِنَّ: السَّمعِ والطَّاعَةِ والجِهَادِ والهِجْرَةِ والجَمَاعَةِ، فإنَّهُ مَن فارقَ الجماعةَ قِيْدَ شِبْرٍ، فقد خلعَ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أنْ يَرجِعَ، ومَنْ ادَّعى دعوى الجاهليَّة، فإنَّه مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ، فقال رجل: يا رسول اللهِ وإنْ

صَلَّى وصامَ؟ فقال: وإنْ صَلَّى وصامَ، فادعُوا بِدعوى اللهِ الذي سمَّاكم المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللهِ". رواه الترمذي(١)

أمر الرسول– ﷺ – أُمته في الحديث الشريف بخمسة أمور امتثالا لأمر الله تعالى، وهي السمع أي القبول، والطاعة أي الامتثال لأمر الله ورسوله وولاة الأمر، والأمر الثالث: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهذا جهاد عام، أما الخاص فهو جهاد النفس وكفِّها عن الشهوات، والأمر الرابع: الهجرة أي هجرة الذنوب، أو هجرة وطن به كفر أو لكونه مقرًا لبدعة أو لكثرة المنكر فيه، والأمر الخامس: لزوم جماعة المسلمين في جادة الدين ومنهاج الحق المبين، ثم أكدَّ –عليه الصلاة والسلام– أن من دعا بدعوى الجاهلية، واستنصر بالقبائل فإنه من الجماعة التي سبق فيها حكم الله بالنار، وذلك وعيد ينفذ فيمن يعتقد ذلك دينا، حتى إن كان ممن صلى وصام؛ لأنها كبيرة لا توازيها الصلاة والصيام في الموازنة، مما يبرز عظم الذنب وهول الكبيرة التي لا تمحوها صلاة ولا صيام(٢).

استُهلَّ الحديث الشريف بالتوكيد الماثل في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المثبت: (وأنا آمُرُكُمْ بخمسٍ)؛ للفت وعي السامع لفتًا شديدًا؛ نظرا لأهمية الخطاب، فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المثبت يدل على تحقيق الحكم وتوكيده من طريقين، الأول: تشويق السامع وتهيئته من خلال تقديم المُحدَّث عنه، والثاني: تكرار إسناد الفعل (آمر) إلى المسند إليه (أنا) مرتان؛ مرة إلى

(١) حديث حسن صحيح، أخرجه الترمذي في كتاب المثال، باب ما جاء مَثَل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)، وأخرجه النسائي في الكبرى ٥/ ٢٧٢، واحمد في مسنده ١٣٠/٤.
–ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي، ت ناصر ابن محمد بن حامد الغريبي: ٧١٢/٢، ١٤٢٤هـ.

(٢) ينظر: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، الإمام الحافظ ابن العربي المالكي: ٣٠٦/١٠، ٣٠٨، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان. بتصرف

الضمير المستتر في الفعل، ومرة في إسناد جملة (آمُرُكُمْ) إلى ضمير المتكلم (أنا) الذي هو المسند إليه المقدم، وهذا التكرار هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم، ويُضاف إلى ذلك عنصر التشويق والإثارة المُفاد من الإبهام في قوله:(خمس)، فضلا عن إسناد الأمر لله وحده عن طريق القصر بتقديم المسند إليه لفظ الجلالة (الله) على الخبر الفعلي المثبت: (أمرني بِهِنَّ)؛ لإفادة توكيد أن الله –عزّ وجلّ– هو الآمر لا أحد غيره، وأنه –صلى الله عليه وسلم– مُبلِّغٌ عنه، وهذا من شأنه أن يُورث المهابة في قلب المؤمن، فلا يُقدم إلا على الامتثال والطاعة لما أمر الله تعالى به ورسوله، ولفظ (السمع) بدل من (خمس) أو عطف بيان له، وما بعدها من الأمور (والطَّاعَةِ والجِهَادِ والهِجْرَةِ والجمَاعَةِ) معطوفة على السمع بالواو التي تفيد التشريك والجمع، لأنها جميعا داخلة في مجموع ما أمر الله به، ويعد ذكرها إيضاحًا لما أُبهم في لفظ (خمس)، وتفصيلا لما أُجمل، أمَّا في تخصيص هذه الخمس بالذكر مع وجود غيرها مما أمر الله به؛ لأهميتها؛ لأن عليها مدار الإسلام، وتحقيق وحدة المسلمين، وأمنهم، وصلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة.

والفاء في جملة: (فإنَّهُ مَن فارقَ الجماعةَ قِيْدَ شِبْرٍ، فقد خلعَ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أنْ يَرجِعَ) للتسبيب والتعليل، فهي تعليل وتفسير للأمر بلزوم جماعة المسلمين –"وهم الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعي التابعين من السلف الصالح، أي آمركم بالتمسك بهديهم وسيرتهم، والانحراط في زمرتهم"[(١)]– في جادة الدين، وعدم الخروج عنها، وبما أن جملة الأمر قد تضمنت إشارات وإيماءات أثارت في النفس المتلقية تساؤلا، ناسب ذلك إدخال قدر من التوكيد في

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ٢٤٨/٧، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط١ ٢٠٠١م.

بناء الجملة المعللة لإزالة التردد من نفس المخاطب خالي الذهن تنزيلا له منزلة الشاك المتردد، فكان التوكيد بأكثر من مؤكد، أولها حرف التوكيد (إنَّ)؛ لتوثيق الحكم، وإقناع السامع بأنه تحذير يجب الاحتراز منه، ثم تأكيد المعنى بضمير الشأن في (إنَّه) الذي يُكسب المعنى فخامة، ويوقظ السامع، ويهيئه لتلقي الخبر، وذلك؛ "بما فيه من غموض، فإذا جاء الخبر بعده صادف نفسًا يقظى، وفهمًا متوفرًا يتسارع إلى المعنى"[(١)]، واسم (إنَّ) هو ضمير الشأن، وخبرها جملة الشرط: (مَن فارقَ الجماعةَ قِيْدَ شِبْرٍ، فقد خلعَ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أنْ يَرجِعَ)، و(قِيْدَ) مأخوذ من القَوَد: أي القصاص[(٢)]، والمعنى أي مثل الشبر، والجملة كناية عن النهي بترك ما عليه جماعة المسلمين واتباع البدع ولو كان بشيء يسير القدر، فمن لم يمتثل فقد استحق الوعيد الواقع في جواب الشرط: (فقد خلعَ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أنْ يَرجِعَ)، فأفادت الفاء ترتب الجواب على الشرط ترتب العقوبة على الإثم، فدلَّت على أنَّ الخروج عمَّا عليه الجماعة واتباع البدع والأهواء هو الذي قد أفضى به إلى هذا الانحراف عن الشريعة، وجواب الشرط مؤكد بحرف التحقيق (قد) الداخل على الفعل الماضي (خلع)؛ تأكيدا لتحقق الجزاء وجعله في صورة الحاصل، وأنه واقع لا محالة.

والربقة في الأصل: "عروة في حبل تُجعل في عُنُق البهيمة أو يدها تمسكها"[(٣)]، والربقة بهذا المعنى تكون مستعارة للإسلام وحدوده وأحكامه، بجامع الأمان والنجاة في كُلٍّ، فالتمسك بشرع الله وما عليه إجماع الأمة هو طوق النجاة

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د محمد محمد أبو موسى: ٣٧١، مكتبة وهبة عابدين القاهرة، ط٢ ٢٠١٠م.

(٢) لسان العرب: مادة (ق و د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ٣٤٢.

والوقاية من الوقوع في الضلالات والبدع، وهذا الوعيد حاصل لا محالة باستثناء: (إلا أنْ يَرجِعَ)، فكان لوقوع حرف الاستثناء (إلا) موقعا حسنا في نهاية الجملة؛ إذ كان بمثابة طوق النجاة لمن زلت قدمه ودخل ضمن هذا الوعيد والذنب العظيم، ومنحه فرصة أخرى للنجاة بنفسه وذلك بتركه للبدع، والرجوع مرة أخرى لما عليه إجماع الأمة المسلمة، وعندئذ ترجع له ربقة الإسلام مرة أخرى.

وفي رواية أخرى: (إلا أنْ يُراجَعَ) بصيغة المفاعلة والبناء للمجهول، فصيغة المفاعلة تُنمِّي معنى الاعتصام والأخوة في الله؛ إذ تفيد معنى المشاركة والتبادل بين المسلمين في نصح بعضهم بعضا إذا حاد أحدهم عن الطريق فينبغي على إخوانه من المسلمين مدّ يد العون له بإخلاص النصح وصدق الدعوة إلى الله –جل وعلا–، والتمسك بشرعه وسُنَّة رسوله الكريم –صلى الله عليه وسلم–، هذا فضلا عمَّا تدل عليه صيغة المضارع من تكرار النصح بالرجوع لربقة الإسلام، ومعاودة ذلك منهم مرة بعد أخرى حتى يفيء إلى طريق الهدى والرشاد، وتلاءم ذلك وبناء الفعل للمجهول؛ للإشارة إلى أنَّ مَن كان ذا عقل وفكر سليم لا ينبغي له مخالفة ما عليه إجماع الأمة المسلمة المتمسكة بكتاب الله وهدي نبيه الكريم –صلوات ربي وسلامه عليه–، كما أشار إلى أن أمر مراجعته إلى صفوف المسلمين واجب على إخوانه جميعا بغض النظر عمن يقوم بالفعل، فهذا ما توجبه أخوة الإسلام ورباط الدين.

وقوله: (ومَنْ ادَّعى دعوى الجاهليةِ، فإنَّه مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ) معطوف على ما قبله: (مَن فارقَ الجماعةَ قِيْدَ شِبْرٍ.....) الجملة المفسرة لضمير الشأن، والعطف بينهما بالواو يؤذن بأن العصبية الجاهلية شكل من أشكال الخروج عن زمرة المسلمين وأخلاقهم والعودة بهم إلى أخلاق الجاهلية، ومعنى دعوى الجاهلية: أي (من نادى في الإسلام بنداء الجاهلية، وهو أن الرجل إذا غلب

عليه خصمه نادى –بأعلى صوته– قومه يا آل فلان، فيبتدرون إلى نصرته ظالما كان أو مظلومًا؛ جهلا منهم وعصبية)[١]، وجاء جواب (مَنْ) الشرطية جملة: (فإنَّه مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ) بالفاء التي رتبت الجواب على الشرط ترتب العقوبة على الذنب، ترتيب في رتبة الخطاب وليس في رتبة الزمن أو الحدث، وما بعد الفاء فيه زيادة ذم وتهويل وتفظيع للذنب قبلها؛ لذا سيق المعنى مؤكدًا بـ(إنَّ) واسمية الجملة؛ لمزيد عنايته –عليه السلام– بتوكيده وتثبيته في نفوس السامعين؛ لأنه يتعلق بأمن الأمة ووحدتها، والجُثا: (جمع جُثْوَة بالضم وهو الشيء المجموع)[٢]، أي من الجماعة التي سبق فيها حكم الله بالنار، أو من (جَثَا يَجْثُو ويَجْثِي جُثُوًا: جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها)[٣]، فيكون المعنى أن من دعا بهذه الدعاوى الجاهلية الباطلة يدخل جنهم جاثيًا على ركبتيه، وحرف الجر (مِنْ) هنا بمعنى بعض؛ أي أن دعوى الجاهلية من بعض جماعات جهنم، أو بمعنى (في)– وهذا ما أرجحه–؛ لأنه بذلك قد أُشربت (مِنْ) معنى الظرفية، ويكون المعنى معها أبلغ في الزجر وأقوى في الردع والتحذير؛ إذ تعني أن هذه الجماعات القائمة نصرتهم على العصبية الجاهلية دون نصرة الحق هي جماعات منغمسة ومستقرة داخل الجماعات التي تُقذف في جهنم بحيث لا تنفك عنها.

والفاء الداخلة على جملة: (فقال رجل: يا رسول اللهِ وإنْ صَلَّى وصامَ؟) تدل على مبادرة الصحابي بسؤال الرسول– ﷺ – فور الإخبار بهذا الوعيد

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ٢٤٩/٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ١٣٧.

(٣) لسان العرب: مادة (ج ث ا).

المحقق، وفي حذف جملة السؤال وتقديرها: أيكون من جثاء جهنم وإنْ صام وصلى؟؛ إشارة إلى ما في نفس السائل من الشعور باستبعاد شمول هذا الوعيد لمن كان له صلاة وصيام، بدليل تقييد الشرط المعطوف على جملة الاستفهام المحذوفة بـ(إنْ)؛ لبناء كلامه على سبيل الفرض والتقدير، فجاء جوابه -ﷺ- ملائما لحال السائل، وماحيًا لهاجس الاستبعاد الذي جال في خاطره، فلم يكن جوابه بـ(نعم)، بل كرر جملة الشرط مرة أخرى: (وإنْ صَلَّى وصامَ) مقرونة بالواو التي جاءت بين جملتي: السؤال المحذوف : أيكون من جثاء جهنم وإنْ صام وصلى؟ والجواب: (وإنْ صَلَّى وصامَ) ، ومقتضى الظاهر ألا تكون؛ لكمال الانقطاع الذي يوجب سقوطها، فإثبات الواو بين الجملة الخبرية والإنشائية هنا إنما كان؛ للتنبيه على ضرورة الإقلاع عن هذه العادات الجاهلية التي نقضها الإسلام وحرَّمها، وكان تكرار جملة (وإنْ صَلَّى وصامَ) مرة أخرى؛ لتثبيت هذا الوعيد في النفوس؛ لخطورته، وبيان أن دعوى الجاهلية كبيرة لا تمحوها صلاة العبد ولا صيامه، كما أن التقييد بـ(إنْ) دون (إذا) مع أن الشرط محقق الوقوع؛ إشارة إلى أنَّ مَن كان ذا صلاة وصيام فالأصل أن تمنعه صلاته وصيامه من التمسك بدعوى الجاهلية المذمومة، ولتكن دعواه فقط للإسلام والمسلمين.

والفاء في قوله-عليه الصلاة والسلام-: "فادعُو بِدعوى اللهِ الذي سمَّاكم المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللهِ" فصيحة أفصحت عن شرط محذوف تقديره: فإذا عرفتم ذلك فادعو بِدعوى اللهِ الذي سمَّاكم المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللهِ، وفي الأمر: (فادعُوا بِدعوى اللهِ) حثٌّ على الانضواء تحت راية الإسلام، ودعوى المسلمين وندائهم بأسمائهم التي سمَّاهم الله بها في كتابه العزيز، فيقول أيها المسلمون أو أيها المؤمنون أو عباد الله، وليس نداؤهم يا آل فلان كما كان في الجاهلية، وسقوط الوصل بالواو بين المفاعيل (المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللهِ)؛ لأن هذه الصفات أشبه بصفة واحدة؛ لأنها جميعا كالشيء الواحد لا يُستغنى عن

جزء منها بغيره، فهي نابعة من منبع واحد وهو إخلاص العبادة لله –جل وعلا– وحده، والتوجه إليه –سبحانه وتعالى– بكل الجوارح مع اختلاف مرتبة الإحسان من عبد لآخر إلا أنهم جميعا تظلهم مظلة الإسلام والتوحيد، ودخول العاطف بين هذه المفاعيل من شأنه تمزيق تلك الصفة الواحدة الكاملة فيهم، فأهل التوحيد والإيمان كلهم أخوة، لا ينتسبون إلى آل فلان وآل فلان بل ينتسبون فقط إلى الإسلام، وإذا ألمَّ بهم أمرٌ توحدوا تحت رايته، وتقوَّى كلٌّ بأخيه، وشدوا من أزر بعضهم بعضا دون الانصياع لأي دعوى تعصبية أو الدخول تحت أي شعار حزبي أو مذهبي لا يُجنَى من ورائه إلا المزيد من الخلاف والتفرق بين المسلمين.

–عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ، أن رسولَ اللهِ–صلى الله عليه وسلم– قال: "ليس مِنَّا مَنْ دعا إلى عصبيَّةٍ، وليس مِنَّا مَنْ قَاتَلَ على عصبيَّةٍ، وليس مِنَّا مَنْ مات على عصبيَّةٍ". رواه أبو داود(١)

بُني الحديث الشريف على التحذير من العصبية بشتَّى أشكالها ومختلف صورها، وقد تقدم ذكر العقوبة على الذنب عن طريق تقديم المسند خبر ليس شبه الجملة (مِنَّا) على المسند إليه اسمها (مَنْ)، مما كان له أثره في إثارة الانتباه وعنصر التشويق لدى السامعين، فتطلعت النفوس لمعرفة الذنب المسبب لهذا الجزاء، وعند ذكره يقرُّ في النفس، ويقع منها موقعًا مؤكدًا راسخًا، وحرف الجر (مِنْ) في قوله: (مِنَّا) لابتداء الغاية، والمعنى: أي لا يُعدُّ من أهل ملتنا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب–باب العصبية (٥٥٢١)، والبيهقي في الآداب (٢٠٧) من طريق أبي داود بهذا الإسناد، وأخرجه ابن عدي في الكامل ١٠٠٥/٣، والبغوي في شرح السُّنة (٣٥٣٤) من طريق سعيد بن أبي أيوب.

–ينظر: سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ت شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي: ٤٤١/٧.

أو أصحاب طريقتنا ابتداء من دعوته إلى عصبية أو القتال لأجل عصبية، وتعدي الفعل (دعا) بإلى التي لانتهاء الغاية؛ للدلالة على أن هدف الداعي الأول والأخير ومنتهى غايته من دعوة الناس هو لأجل العصبية، والإعانة على الظلم ليس إلا.

وجملتا: (وليس مِنَّا مَنْ قَاتَلَ على عصبيَّةٍ، وليس مِنَّا مَنْ مات على عصبيَّةٍ) معطوفتان على الجملة الأولى: (ليس مِنَّا مَنْ دعا إلى عصبيَّةٍ) بالواو؛ للتوسط بين الكمالين، ووجود مسوغ للعطف وهو اشتراكهم في التحريم واتحاد العقوبة؛ لدخول هذه الأمور في العصبية الجاهلية المنهي عنها، مع ملاحظة الاتحاد في بناء الجمل وصياغتها على حذو واحد؛ لتأكيد استئصال شأفة العصبية من القلوب، والقضاء على كل صورها بطريق ليس فيه أسلوب نهي صريح وإنما أسلوب خبري يعتمد فيه على حس المؤمن الحريص على ألا يخرج عن طريقة رسوله الكريم –صلى الله عليه وسلم– وشريعة الإسلام وضوابطها، وهذا بلا شك أبلغ في الردع والزجر والوعيد من أسلوب النهي المباشر.

وتعدي الفعل (قاتل) بحرف الجر (على) دون اللام، فلم يقل: (وليس مِنَّا مَنْ قَاتَلَ لعصبيَّةٍ)؛ لإفادة تمكن التعصب القبلي من قلب المتعصب، وهيمنته على نفسه، ومن ثم انطلق يقاتل قتال الظالم المستعلي المستبد، فإذا مات وهو على تلك الحالة من تمكن العصبية منه، واستعلائها على نصرة الحق وأهله فقد خالف منهج النبيِّ – ﷺ – وخرج عن سنَّته.

ومن الملاحظ في ترتيب الجمل بلاغة الترقي من الأدنى إلى الأعلى في الذنب مع اتحاد العقوبة أو الجزاء، فالتدرج يبدأ من دعوة الناس من أجل العصبية والدفاع عن باطل، صعودًا بالمعنى إلى القتال تعصبًا جاهليا لا غير، وصولا إلى الموت على العصبية الجاهلية، والكل سواء في الجزاء، والسبب وراء ذلك هو سد باب ذريعة العصبية من الأساس، فكان جزاء الداعي لها كالمقاتل من أجلها كمن مات عليها، كلهم متساوون في العقوبة، ويشملهم الوعيد سواء

بسواء، لذا تكررت (ليس) وخبرها المقدم مع جواز حذفهما بعد الواو؛ لأن الواو تدل على الجمع والمشاركة، فكان التكرار؛ لدفع توهم احتمال أن الجزاء على كون الذنوب مجتمعة معا، فتكرارها لرفع هذا الإيهام، وتقرير أن الوعيد لا يُنظر فيه إلى اجتماع الذنوب الثلاثة وإنما يقع على كل ذنب منهم في حال الانفراد، فليحذر كل مسلم من سيطرة النزعة العنصرية على نفسه، وليحرص على تطهير نفسه منها؛ لأنها تنافي كمال الإيمان.

وقد نَفَّر النبي– ﷺ – من العصبية الجاهلية ودعواها ووصفها بأنها حقيرة ومنتنة، **فعن جابر بن عبد الله–رضي الله عنهما– قال: "كُنَّا في غَزاةٍ– قال سفيان مرة في جيش– فَكَسَعَ رجلٌ مِن المهاجرينَ رجلاً من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار، وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسَمِعَ ذاك رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فقال: "ما بالُ دعوى جاهليَّةٍ؟"، قالوا: يا رسولَ اللهِ كَسَعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً من الأنصارِ، فقال: "دَعُوهَا فإنَّها مُنْتِنَةٌ"**. وراه البخاري[1]

إن قول الصحابي جابر بن عبد الله–رضي الله عنهما– في بداية الحديث:("كُنَّا في غَزاةٍ فَكَسَعَ رجلٌ مِن المهاجرينَ رجلاً من الأنصارِ) هو ذكر لمناسبة الحديث، وبمثابة مقدمة له تبسط الزمان والحدث اللذين وقعت فيهما هذه

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٩٠٥)، وفي مناقب الأنصار (٣٥١٨)، واخرجه مسلم في كتاب البر والصلة–باب نصر الخ ظالما أو مظلوما (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٣١٥)، والنسائي في الكبرى ٢٧١/٥، ١٤٣/٦، وعبد الرزاق في مصنفه ٤٦٨/٩، والطيالسي في مسنده (١٧٠٨)، والحميديّ في مسنده (١٢٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٥٩٩٠، ٦٥٤٨)، والطبري في تفسيره ١١٢/٢٨، ١١٣.

–ينظر: : البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٥٩٥/٤٠.

الواقعة، والغزوة كما ذكر ابن حجر العسقلاني هي (غزوة بني المصطلق)[١]، والرجل المهاجري هو جهجاه بن قيس، ويقال ابن سعيد الغفاري، والرجل الأنصاري هو سنان بن وبرة الجهني حليف الأنصار، وقيل كان حليفا لهم من جهينة[٢]، ولا شك أن الراوي يعرف كل هذا ولكنه لم يذكره وآثر الإيجاز والحذف وتنكير الرجلين؛ ليخلِّص كلامه من هذه التوابع التي قد تشغل السامع، فركزَّ كلامه صوب الغرض المقصود، وطوى ما دون ذلك، وهذا يعكس بلاغته- رضي الله عنه-؛ حيث جرَّد كلامه للمعنى المقصود وحذف ما سوى ذلك، ومعنى كسع: (أي ضرب دبره بيده)[٣]، ودخول الفاء على الفعل لا يعني حدوث ذلك فور تجمعهم للغزو بل لا بدَّ أن يكون قد تخللهما أحداث لكن هذه الفاء قد اختصرت وطوت تلك الأحداث والأزمان طيًّا؛ وصولا إلى الحدث الأهم، وهو بوادر اندلاع النزعة العنصرية بين صفوف المسلمين بعد أن آخى الرسول – ﷺ – بينهم.

وجملة (فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار، وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين) معطوفة على ما قبلها بالفاء التي للترتيب والتعقيب، أي فور أن كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ترتب عليه استغاثة كلٍّ منهما بطائفته، فحرف النداء واللام في: (يا للمهاجرين، يا للأنصار) للاستغاثة، أي أغيثوني، فدعا المهاجري المهاجرين واستغاث بهم، وكذلك دعا الأنصاري الأنصار مستغيثًا بهم.

وقوله: (فسَمِعَ ذاك رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقال: "ما بالُ دعوى جاهليَّةٍ؟")، مترتب على ما قبله بالفاء العاطفة، ومتولد منه، والفاء في جملة:

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت محمد فؤاد عبد الباقي: ٦٤٩/٨، المكتبة السلفية.

(٢) السابق: ٦٤٩/٨.

(٣) لسان العرب: مادة (ك س ع).

(فسمع) عُطِف بها الجملة الخبرية على جملة النداء الإنشائية قبلها، من باب عطف القصة على القصة عطف ترتيب، أما الفاء في (فقال) أفادت ترتب قوله –عليه السلام– على سماع قول الصحابيين بلا مهل ولا هوادة، وتوالي الفاءات تجسيد لتعاقب الأحداث في الوقوع، وتولد بعضها من بعض، والمراد بالبال في قوله: (ما بالُ) أي: (الحال والشأن، والبال بمعنى القلب)[١]، وكأن المعنى: (حين تقول ما بال زيد يفعل كذا؟ تريد أي شيء ظهر له وشغل قلبه وعقله وبدَّل حاله وغيَّر شأنه حتى فعل كذا)[٢]، والاستفهام هنا إنكاري توبيخي، وكأنه –صلى الله عليه وسلم– يسأل عن الأصل الذي دعا كلا منهما لدعوى الجاهلية بعد أن وحَّد الإسلام بين المسلمين، وألَّف بين قلوبهم، كما أن وصف هذه الدعوى بالجاهلية يشير إلى استنكاره –عليه السلام– لما كان عليه الجاهليون من انتصار بعضهم لبعض عند الغضب في أمور الدنيا، والتقاتل القائم على العصبات، وكرهه حدوث ذلك بين المسلمين، فجاء ردُّ الصحابة مفسرًا لسبب حدوث ذلك بين الصحابيين (قالوا: يا رسولَ اللهِ كَسَعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً من الأنصار) فكان الفصل لكمال الاتصال، أو لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، و(مِنْ) بيانية، لبيان أن الرجل الأول من طائفة المهاجرين والثاني من طائفة الأنصار.

وكان ردُّ المصطفى–صلى الله عليه وسلم– تعقيبًا على قول الصحابة، (فقال: دَعُوهَا فإنَّها مُنْتِنَةٌ) بالفاء، وكان يمكن الاستغناء عنها ويكون الكلام من باب شبه كمال الاتصال؛ حيث أثارت الجملة التي قبلها تساؤلا في نفس السامع مضمونه: ماذا كان ردُّ الرسول–عليه الصلاة والسلام– بعد سماع تبرير الصحابة

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ٩٣.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د محمد محمد أبو موسى: ٢٧٣.

لموقف الصحابيين؟، إلا أن هذه الفاء ألغت هذه التساؤلات الكامنة في النفس، وجعلت المعاني تتلاحق ويُضم ثانيها إلى أولها، وصيغة الأمر في قوله: (دَعُوهَا) على حقيقتها بمعنى الإلزام والوجوب بترك دعوى الجاهلية وتجنبها، ثم علل سبب هذا الأمر بجملة: (فإنَّها مُنْتِنَةٌ) المؤكدة بـ(إنَّ) واسمية الجملة؛ لعنايته –عليه الصلاة والسلام– بتقرير المعنى في نفس السامع وتوثيقه؛ لأنه من الخطورة بمكان، والفاء الداخلة على الجملة هي نصٌّ في السببية ونصٌّ في علة فعل الأمر قبلها (دعوها)، فالجملة المؤكدة موصولة بالتي قبلها (جملة الأمر)؛ لأنها واقعة موقع الجواب، لذا يجوز حذف الفاء لشبه كمال الاتصال لكن إثباتها جعل الكلام كلامًا واحدًا؛ حيث تُذكر العلة دون انتظار تساؤل السامع المثار في نفسه عن سبب ترك دعوى الجاهلية، فتتصل جملة العلة بالتي قبلها بالفاء السببية، ويجوز أن يكون بينهما كمال الانقطاع لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، والأنسب هو حمل الكلام على شبه كمال الاتصال؛ لاتصال الجملة المؤكدة الخبرية بجملة الأمر قبلها كاتصال الجواب بالسؤال.

فالحديث مكون من عدة جمل تلاحمت وصارت كأنها جملة واحدة، وكانت الفاء هي العروة التي وصلت المعنى السابق باللاحق حتى تضامت أجزاؤه وصارت جملة واحدة، وهذا ما سمَّاه الإمام عبد القاهر بالنمط العالي، إذ يقول: "واعلم أنَّ مما هو أصل في أنْ يَدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المسلك في توخي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتحدَ أجزاءُ الكلامِ، ويدخلَ بعضها في بعض، ويشتدَّ ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاجَ في الجملة أن تضعها في النفس وضعا واحدًا"[1]، وقد جاء الحكم على دعوى الجاهلية بأنها مُنتنة، تشبيهًا لها بالجيفة النتنة؛ مبالغة في

(١)دلائل الإعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحويّ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر: ٩٣.

حقارتها وهوانها، ومن ثم وجب على المسلمين تجنبها وإبدالها بدعوى الإسلام التي أذابت كل العصبيات، وأسقطت جميع الفوارق بين المسلمين، فلم تُبقِ إلا حمية الإسلام والتعصب لنصرته وإعلاء شأنه.

المبحث الثاني: النهي عن التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب.

المطلب الثاني: النهي عن الطعن في الأنساب.

المطلب الأول: النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب

نهى الإسلام عن التفاخر بالأحساب الذي يكون مبعثه الكبر وغمط الناس واحتقارهم والتعالي عليهم، فقد حذَّر الرسول – ﷺ – من هذا، وعَدَّه من خصال الجاهلية وعاداتها المذمومة، فالأحساب والأنساب جعلها الله –عزّ وجلّ– للتعارف والتقارب بين الناس لا ليتفاخر بها أحد على أحد أو يتعاظم بها قوم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير﴾ [الحجرات:١٣]، ولا شك أن للنسب مكانة بين الناس، دعا الإسلام إلى تقوية روابطه عن طريق الحث على صلة الرحم، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "تَعَلَّمُوا من أَنْسَابِكم ما تَصِلُونَ به أرحامَكم، فإنَّ صلةَ الرحمِ مَحَبَّةٌ في الأهلِ، مَثْرَاةٌ في المالِ، مَنْسَأَةٌ في الأَثَرِ"(١)، أمَّا عندما يكون النسب مدعاة للفخر المذموم فهذا ما نهانا الإسلام عنه، وحذَّرنا الرسول الكريم منه؛ لأنه يؤجج نار الفتن بين المسلمين، ويوغل صدورهم بالحقد والكراهية على بعضهم البعض.

–عن ابنِ عُمَرَ: "أنَّ رسول اللهِ – ﷺ – خَطَبَ الناسَ يَوْمَ فَتْحِ مكَّةَ فقال: "يا أَيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَ قدْ أَذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وتَعَاظُمَها بآبائها، فالناسُ رجلانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريمٌ على اللهِ، وفاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على اللهِ، والناسُ بَنو آدَمَ وخَلَقَ اللهُ آدَمَ من التُّرابِ، قال اللهُ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير﴾. رواه الترمذي(٢)

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة– باب ما جاء في تعليم النسب (١٩٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن– باب ومن سورة الحجرات (٣٢٧٠).

قول ابن عمر –رضي الله عنهما–: (أنَّ رسول اللهِ – ﷺ – خَطَبَ الناسَ يَوْمَ فَتْحِ مكَّةَ) يُعدَّ ذكرًا للحديث بسياقه وزمانه؛ حيث حدَّد –رضي الله عنه– من خلاله الحدث وهو خطبته –صلى الله عليه وسلم– وزمانه، وأنه كان يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، وجملة: (فقال) معطوفة على جملة : (خطب) بالفاء التفسيرية؛ لأن القول تفسير وبيان لخطبته –عليه السلام– أو بعض من الخطبة، وفي هذا إيضاح بعد إبهام يجعل المعنى أوقع في النفس وأشد تأثيرًا؛ إذ جاء بعد إثارة وتطلع لإيضاح ما أُبهم.

وافتتح – ﷺ – خطبته بالنداء بالحرف (يا)، وفيه إشعار بأهمية ما ينادِي لأجله، وأنه أمر عظيم، بالإضافة إلى حرف التنبيه (ها) في المنادى، مما جعل النداء أبلغ في الاستدعاء والإيقاظ وجذب الانتباه لما يُقال، فاستشرفت النفوس لاستقبال ما يُلقى عليها بيقظة وتطلع، مما ناسب توكيد الجملة: (إنَّ اللهَ قدْ أَذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وتَعَاظُمَها بآبائها) بأساليب عدة من التوكيدات، أولها حرف التوكيد (إنَّ) واسمية الجملة ثم حرف التحقيق (قد) الداخل على الفعل الماضي (أذهب) ثم تقديم الجار والمجرور (عنكم) على المفعول به (عُبِّيَّةَ)؛ فآذن كل هذا بأهمية الخطاب، وصار المخاطبون بهذه الصيغة البالغة التوكيد أمام أمر عظيم لزم عليهم الإنصات له والامتثال به، وهو أن الله –عزَّ وجلَّ– قد رفع عن المسلمين بإسلامهم كِبَرَ الجاهليين وتفاخرهم بآبائهم، وطهَّرهم من هذه العادات المذمومة، وكان النداء بلفظ (الناس) دون المؤمنين أو المسلمين؛ مراعاة للمناسبة التي نودوا من أجلها، وهي التذكير بأن أصلهم واحد، وأنهم في الخلقة سواء، ومعنى عُبِّيَّةَ بضم العين وكسرها: (الكِبْر، فإن كانت فُعَّولة فهي من التعبية؛ لأن المتكبر ذو تكلفٍ وتعْبية، وإن كانت فُعَّيلة فهي من عُبَاب الماء،

وهو أوله وارتفاعه)[١]، كما أفاد حرف الجر (عن) الذي يفيد المجاوزة تأكيد معنى تكريم الله عزّ وجل للمسلمين؛ لتخليصهم من أخلاق الجاهلية وعوائدها، ثم في عطف قوله: (وتَعَاظُمَها بآبائها) على (عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ) بالواو؛ لإفادة أن كليهما خُلُقٌ مذموم نهى الله تعالى عنه، وطهَّر المسلمين من الاتصاف به، فرفع بذلك قدرهم وأعلى شأوهم.

والفاء الداخلة على قوله: (فالناسُ رجلانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كرِيمٌ على اللهِ، وفاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على اللهِ) فصيحة دلت على شرط محذوف تقديره: فإن أحكمت علم ذلك وامتثلت له فالناس رجلان.....، وجملة: (فالناس رجلان) مبهمة، أثارت في نفس السامع تطلعا لمعرفة جنس الرجلين وصفتهما، لذا جاء استئناف جملة مفسرة لإزالة هذا الإبهام وهي قوله: (رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كرِيمٌ على اللهِ)، فالفصل لكمال الاتصال، وعُطِف عليها جملة: (وفاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على اللهِ) بالواو التي تفيد المغايرة بين الصنفين، وقد توزع الناس جميعا عن طريق حسن التقسيم إلى قسمين متباعدين تماما لا ثالث لهما، فالأول: بَرٌّ تَقِيٌّ، والثاني: فاجرٌ شَقِيٌّ، وبين الجملتين مقابلة أبرزت التفاوت الرتبي بين الصنفين في المنزلة والقرب من الله سبحانه وتعالى، فالأول (كريم على الله) كناية عن سمو منزلته عند الله عز وجل، والثاني (هَيِّنٌ على اللهِ) كناية عن بعده عن رحمة الله ورضوانه، والاستعلاء المفاد من حرف الجر (على) مجازي؛ معناه في الأول قوة الاتصال بالله، وبلوغه بتقواه وبرِّه المكانة العالية عند الله –عزَّ وجلَّ–، أما في الثاني فالمعنى بلوغه بفُجْره وكفره أو نفاقه مرحلة من تمكن الذل والهوان بحيث لا يفارقهما، وفي هذا من الغضب وتفظيع الجُرم لمعاندة الحق ما فيه، وعليه فقد

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ٥٨٧.

دلَّ التنكير في (بَرٌّ تَقِيٌّ) على التعظيم، أما في (فاجرٌ شَقِيٌّ) على التحقير، وفي تقديم الصنف الأول (بَرٌّ تَقِيٌّ) على الثاني (فاجرٌ شَقِيٌّ) بيان لشرف الإيمان والتقوى والعمل الصالح المفضي إلى القرب من الله، وأن هذا الصنف البارُّ التقيُّ يكون من القرب من الله بمكان.

والواو الداخلة على قوله: (والناسُ بَنو آدَمَ وخَلَقَ اللهُ آدَمَ من التُّرَابِ) واو الاستئناف التي يُعطف بها مضمون معنى على معنى؛ لأن ما بعدها معنى جديد وهو إقامة الدليل على دحض التكبر وانتفائه من الأساس، وذلك لأن أصل الناس واحد وهو آدم –عليه السلام–، فالناس كلهم أخوة، وعليه فلا وجه للتكبر والتفاخر بالأنساب، وكذلك الواو في جملة (وخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِن التُّرَابِ) لعطف معنى خلق الله آدم من التراب على معنى كون الناس بني آدم، فيلزم عن ذلك كون الناس كلهم من التراب، كما دلت الجملة دلالة ظاهرة على أنه لا يليق بمن كان أصله التراب التجبر والتعالي على الناس بنسبه، و(مِنْ) في قوله (من التراب) ابتدائية متعلقة بالفعل الماضي (خلق)؛ للدلالة عل تقرير أمر الخلق من التراب، وأن هذا شأن متقرر منذ القدم، كما أفاد التعريف بـ(أل) في التراب أنه جنس التراب المشهور الذي عهدتموه وعرفتموه، ثم انتقل –صلى الله عليه وسلم– من الزجر إلى إسماع قول الحق الذي لا قول بعده، فقرأ قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

-عن أبي هريرة، عن النبيِّ- ﷺ - قال: "لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنَّما هم فَحْمُ جَهَنَّمَ، أو لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ على اللهِ مِنَ الجُعْلِ الذي يُدَهْدِهُ الخرءَ بأنْفِهِ، إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخرَهَا بالآباء، إنَّما هو مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ، النَّاسُ كُلُّهم بنو آدمَ، وآدمُ خُلِقَ مِنَ تُرَابٍ". رواه الترمذي(١)

جاء النهي عن التفاخر بالأنساب في هذا الحديث بلهجة تهديد شديدة وحاسمة مؤكدة بالقسم ونون التوكيد الثقيلة وفعل المضارع الدال على النهي والكف، ليس لغرابة الخبر، ولا لإزالة شك ما عند المخاطبين، فالمتحدث هو الصادق المعصوم-صلوات ربي وسلامه عليه-، والأمة تأخذ عنه أخذ قبول وتسليم وإذعان؛ وإنما لمزيد عنايته -صلى الله عليه وسلم- بالأمر المقسم عليه؛ لأنه من الآفات المُهلكة للمجتمعات، وقد بُني الحديث على وعيد وغضب شديد يتجلى في كلماته ونظمه، وأول ذلك اللام في (لَيَنْتَهِيَنَّ) الواقعة في جواب القسم المقدر، وتقديره: (والله لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ)، وقَدْرُ القسم بقدر من أقسم، ثم زيادة تأكيد هذا بنون التوكيد الثقيلة الداخلة على الفعل المضارع (ينتهي) المُعبِّر عن معنى الامتناع والكف الصريح عن الافتخار بالآباء، ثم تنكير (أقوام)؛ للإشارة إلى أنهم أقوام مجهولون منكرون لا يعتد بهم، ولا شك أنه -صلى الله عليه وسلم- قد رأى ذلك من بعض المسلمين فكره التصريح وآثر التنكير؛ إشارة إلى إنكاره ذلك منهم، ثم وصف (أقوام) بجملة فعلية فعلها مضارع: (يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا)؛ للدلالة على تكرار افتخارهم بآبائهم، وتجدد ذلك منهم دون انقطاع ولا فتور، فضلا عن دلالة صيغة المضارع على استحضار صورة الافتخار والتعالي على

(١) حديث حسن، حسَّنه الترمذي والألباني، أخرجه الترمذي في كتاب المناقب- باب فضل الشام واليمن (٣٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦).

الغير، وتجسيد ذلك الحدث، ثم دلالة صيغة الافتعال في (يفتخر) على الاحتفال والاحتشاد والاعتمال، فهو فخر مَعْنِيّ به ليس كأي فخر، ثم تعدي الفعل (يفتخر) بالباء التي للإلصاق؛ فأقامت الأسلوب على طريقة التصوير والتجسيد، وكأن افتخارهم بالآباء لم يكن مجرد شعور وحميَّة بل صار شيئًا مجسدًا ماديًا تراه العيون، لتأكيد ملابسته للقوم ملابسة حسية، فهو في صحبتهم وملازم لهم ملازمة دائمة، ثم وصف آبائهم بالاسم الموصول (الذين)؛ لدلالة جملة الصلة (الذين ماتوا) على المبالغة في تقبيح فعلهم وتشنيع صنيعهم؛ لأن جملة الصلة تفيد أن من المعلوم والمشهور لدى الجميع أن آباءهم قد ماتوا على الكفر، ثم يأتي الاعتراض بين جملة المعطوف والمعطوف عليه بجملة: (إنَّما هم فَحْمُ جَهَنَّمَ) المؤكدة بالقصر بـ(إنَّما) التي يُؤتى بها في الأمر المعلوم الذي لا إنكار فيه، فدلَّت على قصر آبائهم على كونهم فحم جهنم ووقودها لا غير، ولا يتعدون ذلك إلى فضيلة تستحق الافتخار بها، والمغزى من جملة الاعتراض المبالغة في الزجر والردع والتنفير من هذا الأمر.

وقوله: ﴿أو لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ على الله مِنَ الجُعَلِ الذي يُدَهْدِهُ الخرءَ بأَنْفِهِ﴾ معطوفة على جملة القسم (لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ) بحرف العطف (أو) التي للتخيير، فأفادت أن أحد الأمرين واقع لا محالة، إمَّا الانتهاء عن الافتخار بالآباء أو ليكونَنَّ هؤلاء المفتخرون عند الله –عزَّ وجلَّ– أهونَ من الجُعل الموصوف بالاسم الموصول وصلته: (الذي يُدَهْدِهُ الخرءَ بأنْفِهِ)، والجُعل: (دويبة سوداء تدير الغائط يقال لها: الخنفساء)[1]، وقد بُنيت جملة المعطوف على التشبيه التمثيلي؛ حيث شُبِّهت هيئة

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام الحافظ أبي العليّ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبار كفوري، راجعه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان: ٤٥٤/١٠، دار الفكر لطباعة والنشر والتوزيع.

المفتخرين بآبائهم الذين ماتوا على الكفر بهيئة الجُعل الذي يدحرج الخراء بأنفه، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الاحتفاء والاعتزاز بشيء حقير مُنتن لا قيمة له، وقد جاءت جملة المعطوف المتضمنة الوعيد مؤكَدة كجملة المعطوف عليه بالقسم ونون التوكيد الثقيلة، ثم صيغة أفعل التفضيل (أهون)؛ لتأكيد ذل وهوان وحقارة المفتخر عند الله من هذه الدويبة، أمَّا الاستعلاء المستفاد من حرف الجر (على) في قوله: (أهون على الله) فهو مجازي، معناه تمكن الذل والهوان من المفتخرين بآبائهم ، وكونهم أذل عند الله من الجُعل الموصوف، وكلمة (يُدَهْدِه) من الكلمات المصورة لمعناها بهيئتها؛ إذ أظهرت قوة تصوير الانحدار من أعلى إلى أسفل تدحرجا يجسده أصوات الكلمة وتكرارها، فصوت الدال صوت انفجاري مجهور، وصوت الهاء مهموس رخو، ووقوع الهاء عقب الدال يصور بدقة هذا الانحدار المتكرر في صورة دحرجة من مكان عالٍ إلى مكان منخفض، فالمفتخر بنسبه ومفاخر آبائه بهذا الفعل ينتقص من كمال إيمانه، وينحدر بفعله هذا في مهوى من الذنوب والآثام التي تحط من قدره. والله تعالى أعلم

وجملة: (إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخرَهَا بالآباء) مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ إذ تفسر علة النهي عن الفخر بالآباء بعد أن مَنَّ الله علينا بالإسلام، وأذهب عنَّا عوائد الجاهلية وسلوكها، فالفصل لشبه كمال الاتصال، ومن الملاحظ مزيد العناية بتقرير المعنى بداية من التوكيد بـ(إنَّ) واسمية الجملة ثم تقديم الجار والمجرور (عنكم) على المفعول به (عُبِّيَّةَ)؛ لأنه أدخل في تحقيق الغرض المسوق له الكلام؛ لأن دلالة حرف الجر (عن) على المجاوزة يُعدُّ تأكيدًا لمعنى الإزالة في الفعل (أذهب)، ثم تقديمه مع المجرور (ضمير المخاطبين) على المفعول به (عُبِّيَّةَ) يؤكد فضل الله –عزَّ وجلَّ– على أمة الإسلام بأن رفعها، وتجاوز بها عن كل مظهر من مظاهر الجاهلية الأولى، وسلوكياتها المذمومة.

أمَّا قوله- ﷺ -: (إنَّما هو مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ) فقد بُني على القطع والاستئناف، والقطع لا يكون إلا لأمر ذي شأن، إذ استُئنِف بها دليل قاطع على انتفاء وجود التفاخر، وهو حصر المتكبر عن طريق حسن التقسيم في أحد صنفين، إمَّا مؤمنٌ تقيٌّ فحينئذ لا ينبغي له أن يتكبر على أحد، وإمَّا فاجرٌ شقيٌّ وهذا ذليل هيِّنٌ على الله، والذليل لا يحق له التكبر، ولا يليق به التفاخر، ومن ثَم ثبت انتفاء التكبر في كل حال، والواو العاطفة بين (مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ) تفيد تمام المغايرة بين الصنفين، فبينهما مقابلة خفية؛ لأن لفظ (شقيّ) يقابله (سعيد) لا تقيّ، لكن لما كانت التقوى تستلزم الدخول في رحمة الله والفوز برضوانه كانت سببا في السعادة المقابلة للشقاء.

وجملة: (النَّاسُ كُلُّهم بنو آدمَ) جملة مستأنفة أيضا لتضمنها معنىً جديدًا عن سابقتها، إذ تتضمن حجة ساطعة أقوى من السابقة في استئصال شأفة دعوى التفاخر من جذورها؛ لأنها تدل على المساواة بين جميع الناس في الأصل وهو آدم –عليه السلام– أبو البشر جميعا، فالجميع أخوة ولا وجه للتكبر، ثم زاد الحجة تأكيدًا، جملة: (وآدمُ خُلِقَ مِنَ تُرَابٍ) المقترنة بالواو الاستئناف التي تعطف معنى على معنى، فأفادت أخوة الناس جميعا واتحادهم في الأصل ولا سيما إن كان الأصل وهو آدم –عليه السلام– مخلوقًا من تراب، بتنكير تراب؛ لإفادة التحقير، والتراب ليس مدعاة للفخر والكبر بل على العكس تماما فهو مدعاة للتواضع واللين، ومن ثَم ثبت بما لا يترك مجالا للشك انتفاء وجود أصل للتفاضل بالأنساب والأحساب، وقصر التفاضل على تقوى الله عزّ وجلّ والتخلق بأخلاق الإسلام.

وهذا الحشد من التوكيد والتقرير والتفخيم في كل جمل الحديث الشريف بداية من القسم ثم التوكيد بنون التوكيد الثقيلة ثم التوكيد بإنَّ والتوكيد بإنَّما ثم التوكيد المعنوي في (كلهم)، وكذلك التوكيد بالحال، كل هذا يعكس مدى غضبه –صلى الله عليه وسلم– وإنكاره الشديد لهذا السلوك الغريب وهو التفاخر

بالأنساب الذي قد بدا من بعض المسلمين بعد أن أعزهم الله بالإسلام، ورفعهم عن أخلاق الجاهليين وعوائدهم التي سادت في زمانهم، والتي من شأنها غرس مبدأ العنصرية والتمييز بين أفراد المجتمع الواحد، فجاء الإسلام وقضى عليها، ونهى عن كل مظهر من مظاهرها؛ إرساءً لمبدأ المساواة بين الجميع أمام الله في الحقوق والواجبات، حرصا على وحدة المسلمين وترابطهم.

–وفي النهي عن التفاخر بالأنساب والأحساب **ما رواه عِيَاضِ بنِ حمار: أَنَّ رسولَ الله –صلى اللهُ عليه وسلم– قال: "إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أنْ تَواضعُوا حتَّى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ"**. رواه مسلم(١)

استُهِل الحديث الشريف بالتوكيد بإنَّ واسمية الجملة؛ لبيان حرصه –عليه الصلاة والسلام– الشديد على تعليم أُمته أمور دينها مما علَّمه الله تعالى بالوحي، لذا لم يقل –عليه الصلاة والسلام–: (أُوحي إليّ) بصيغة المبني للمفعول، والوحي إليه لا يكون إلا من الله –جلَّ وعلا–، ولكنه أسند الفعل إلى الله –عزَّ وجلَّ–؛ تنويها بهذا المُوحَى به وتعظيما له، والنصُّ على أنه من عند الله من أجل تحقيق هذه التعاليم من المخاطبين، وترسيخها في وجدانهم، والوحي: "يقع على الإلهام والكلام الخفي"(٢)، وحرف الجر (إلى) في قوله: (إليَّ) يفيد انتهاء الغاية، و(أنْ) في قوله: (أنْ تَواضعُوا) تفسيرية (بمنزلة أي)(٣)؛ لأن الجملة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها–باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وابن ماجة في كتاب الزهد–باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٩).

(٢) لسان العرب: مادة (و ح ي).

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، ت محمد محيي الدين عبد الحميد: ٣٩/١.

السابقة (إنَّ اللهَ أوحى) متضمنة معنى القول وليس بها أحرف القول، فأثارت في النفوس تشوقا لمعرفة ما أوحى الله به لرسوله –عليه السلام–، فأتبع هذا الإبهام بالتفصيل في جملة (أنْ تَواضعُوا)، فهي إيضاح بعد إبهام، وهذا من شأنه تمكين المعنى في النفس فضل تمكين، وصيغة تفاعل في الفعل (تواضعوا) تدل على المشاركة والتبادل، أي حصول التواضع متبادلا بين أفراد المجتمع المسلم.

ثم قال– عليه الصلاة والسلام–: "حتَّى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ"، فجعل بـ(حتى) التواضع المتبادل بين المسلمين له غاية يصل إليه، وهذه الغاية في قوله: (لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ)، والفخر هو: (التمدح بالخصال، والتفاخر هو التعاظم والتكبر)[1]، والمعنى كي لا يتعاظم أحد على أحد، ويرفع من قدر نفسه تعاظمًا وعجبًا، ومعنى البغي: (الاستطالة على الناس، والبغي الظلم والفساد)[2]، فلا يجوز لأحد أن يظلم أحدًا.

وزيادة (لا) النافية بعد واو العطف في قوله: (ولا يبغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ)؛ لتقرير الغرض المسوق له الكلام وهو النهي عن كل من التفاخر والبغي على حدة، أما حذفها من الجملة الثانية فيؤدي إلى توهم أن المراد تعلق النهي بكونهما مجتمعين معا؛ لأن الواو تدل على المشاركة والجمع، فاقتضى ذلك زيادة (لا) النافية؛ لإفادة تعلق النهي بكلا الفعلين سواء كانا مجتمعين أو منفردين، يقول الرمَّاني: "وتكون (لا) زائدة على وجه منها أن تزاد مع الواو لإزالة الاحتمال؛ وذلك نحو قولك: ما قام زيد ولا عمرو؛ وذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو احتمل أنهما لم يقوما معا ولكن منفردين، فإذا أزدت (لا) زال هذا الاحتمال، وصار إعلاما بأنهما لم يقوما البتة"[3]، ووقوع النكرة (أحد) في سياق النفي يدل

(١) لسان العرب: مادة (ف خ ر).

(٢) السابق: (ب غ ا).

(٣) معاني الحروف للإمام أبي الحسن علي بن عيسى الرُّمانيّ النحويّ، ت الشيخ عرفان بن =

على العموم، بمعنى لا يحل لمسلم قط التكبر ولا التعدي بالظلم على أحد قط مسلما كان أو غير مسلم من الذميين والمعاهدين، ووجه الجمع بين النهي عن الفخر والبغي: "إشعار بأن الفخر والبغي نتيجتا الكِبْر؛ لأن المتكبر هو الذي يرفع نفسه فوق كل أحد، ولا ينقاد لأحد"[(١)]، وتناسب هذا المعنى وتعدي الفعلين: (يفخر ويبغي) بحرف الجر (على) والتي وقعت موقعا حسنا؛ لتضمنها معنى الاستعلاء والسيطرة والهيمنة الملائمة لمعنى البغي والاستطالة على الغير، فنهى الله –عزّ وجلّ– على لسان نبيه الكريم عن نوعي الاستطالة على الخلق سواء بالفخر والتعالي عليهم بالحسب والنسب أو بالظلم والبغي عليهم، فلا يحل للمسلم هذا ولا ذاك، فهذا ينتقص من كمال إيمانه، ويُخرجه عن دائرة الفضل عند الله الذي أكرمه بالإسلام ومنَّ عليه بالإيمان، فتواضع المسلم لأخيه رفعة له عند رب العالمين وكذلك عند الناس.

–عن الأعمش، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم–: "ما مِنْ رجلٍ يسلُك طريقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا إلا سَهَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ، ومَنْ أبطأَ به عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ به نَسَبُهُ". رواه أبو داود[(٢)]

=

سليم العشا حسونة: ٥٩، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت، ط١ ٢٠٠٥م.

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ١٢١/٩.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود في كتاب العلم– باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٣)، وأخرجه مسلم بأطول مما هنار(٢٦٩٩)، والترمذي (٢٨٣٧)، والإمام أحمد (٧٤٢٧)، وصحيح ابن حبان (٨٤).

ينظر: سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ت شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي: ٤٨٧/٥.

الحديث الشريف فيه حثٌّ على طلب العلم، وبيان فضله العظيم عند الله، وقد بُني الحديث على التوكيد بأساليب عدة، أولها القصر بطريق النفي بـ(ما) والاستثناء بـ(إلا)؛ ليفيد قصر قصر طلب العلم على العطاء العظيم والفوز بالجنة يوم القيامة، قصر صفة على موصوف، أي ليس هناك من طلب العلم بأسبابه إلا ونال هذا النوال العظيم من الله عز وجلّ، و(مِنْ) الداخلة على النكرة في قوله (من رجل) زائدة، وقد أفادت معنى جليلا وهو توكيد الاستقصاء؛ أي أنه لا يوجد رجل البتة سلك طريقا لطلب العلم إلا ويشمله هذا الفضل العظيم، فالنكرة للعموم، وهذا الفضل لا يقتصر على الرجال؛ لأن العبارة جاءت على طريق التغليب بمعنى أنَّ النساء يدخلن ضمن الرجال في هذا الحكم، كما أومأت صيغة المضارع (يسلك) إلى أن هذا الفضل الكبير لا يُنال إلا بكد وإلحاح ومثابرة ومداومة مستمرة في طلب العلم دون كلل أو ملل، لأنه طريق منوط بالسعي الدؤوب والبحث المستمر عن كل سبيل وأي سبيل يبلغ به طالب العلم بغيته، فأفاد تنكير (طريقًا) العموم، بمعنى أي طريق وكل طريق قريبًا كان أو بعيدًا، عسيرًا أو يسيرًا، حسيًا أو معنويًا بشرط أن يكون المقصد الأول والغاية الأم من سلوك هذا الطريق هو أن: (يَطْلُبُ فيه عِلْمًا)، فالجملة صفة لـ(رجل)، وكان تقديم الجار والمجرور (فيه) على المفعول به (علمًا)؛ لتأكيد تعلق الحدث وهو الطلب بالمكان تعلق الظرف بالمظروف، أي تمكن قصد طلب العلم في هذا الطريق المسلوك وإخلاص نيته لطلبه دون غاية أخرى، كما أفاد التنكير في (علمًا) العموم؛ ليشمل كل نوع من أنواع العلوم النافعة للأُمة، فيُكتب لطالبه الفضل والأجر العظيم من الله إذا كانت الغاية منه التقرب إلى الله –عزّ وجلّ– والانتفاع به ونفع المسلمين.

وما جاء بعد (إلا) في قوله: (إلا سَهَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ) مقصور عليه، ومجيء الماضي على صيغة (فعَّل) يفيد الكثرة والمبالغة في تسهيل الطريق بما يزيد في علمه فيكون سببا موصلا إلى الجنة مع قطع

العقبات الشاقة وتذليلها دونها، وبما أن الفاعل هو الله –جلّ وعلا– فلا اعتبار لأي عقبات، فكلها مذللة بحوله وقوته سبحانه وتعالى، واللام في (له) تفيد الاختصاص، أي اختصاص كل من سلك طريقا الهدف منه طلب العلم بهذا الفضل وهو التقرب من رضا المولى والفوز بنعيم جنته، أمَّا الباء في (به) للسببية؛ بمعنى أن نيل هذا الجزاء الكبير بسبب المشي والسعي في أي طريق يبتغي به علما، وكان تقديم الجار والمجرور (له) على الجار والمجرور (به)؛ لأنه موضع العناية والغرض من الكلام؛ فالغرض المقصود هو الترغيب في طلب العلم، والحث على تحصيله بكل الوسائل وشتى الطرق، واحتشاد كل الطاقات والجهود لتحصليه والسعي في نواله، فأفاد تنكير (طريقا) في قوله: (طريقًا إلى الجنَّةِ) التعظيم، فأي طريق أشرف وأعظم من طريق ينتهي به (إلى الجنة)، فحرف الجر (إلى) لانتهاء الغاية، فالجنة دار العزة والكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وهي منتهى غاية المؤمن وأسمى آماله.

والواو في قوله: (ومَنْ أبطأَ به عملُهُ لم يُسرعْ به نسبُهُ) للاستئناف، يستأنف بها معنى جديدًا، و(مَنْ) اسم شرط مبتدأ، وجملة الشرط (أبطأَ به عملُهُ)، وجوابه (لم يُسرعْ به نسبُهُ)، والمعنى أن من كان عمله ناقصا لتفريطه في كسب الأعمال الصالحة في الدنيا لم يقدمه نسبه الشريف للفوز برضا الله والدخول في رحمته، وقد أقامت الباء في (به) المتعلقة بالفعلين (أبطأ، يسرع) المعنى على التجسيد والتصوير؛ فصورت العمل السيء المصاحب للإنسان في الدنيا والآخرة بهذه الصورة المحسة من العرقلة والإبطاء وعدم اللحوق بمرتبة الأخيار في الآخرة، كما صورت انتفاء ملازمة النسب لصاحبه، والتخلي عن نصرته في الآخرة بحيث لم يجبر نقصيته وتأخره عن اللحوق بالأبرار لأنه كان نسيبًا وحسيبًا في الدنيا، وليس المراد بانتفاء الإسراع في قوله: (لم يُسرعْ) إفادة معنى الإبطاء، بل المراد نفي وقوع الحدث من الأصل؛ لأن دخول (لم) النافية على الفعل المضارع تقلب معنى المضارع من الحال والاستقبال إلى الزمن الماضي،

فالمعنى هنا نفي وقوع الإسراع بالمفتخر في زمن مضى، وهذا أوكد في انتفاء النفع بالأنساب من الأساس، فلا نفع للمفتخر بنسبه البتة في الآخرة، فالمعول هو الإيمان المصاحب للأعمال الصالحة، فينبغي على المسلم ألا يتكل على شرف النسب ويقصر في الطاعات وعمل الصالحات.

المطلب الثاني: النهي عن الطعن في الأنساب

الطعن في النسب يعني أحد معنيين؛ إمَّا تعيير الغير بالنسب وذكر معايبه، أو نفي النسب عن شخص ما يدَّعي أنه من آل فلان بدون بينة، وكلاهما محرَّم، فقد نهت الشريعة المطهرة عن تعيير الآخرين واحتقارهم، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾[**الأحزاب:٥٨**]، كما أن نفي النسب عن الآخرين دون بينة من أجل تقطيع الرحم محرَّم، فالأصل فيمن ادَّعى نسبا أنه مؤتمن على ذلك ولا يجوز تكذيبه، فالطعن في النسب سواء كان بقصد تعيير الغير والانتقاص منه أو بقصد نفي نسبه لقوم ما فكله منهي عنه؛ لأن هذا من أمور الجاهلية التي حذَّر الرسول – صلى الله عليه وسلم– منها؛ لما يترتب عليه من مفاسد عظيمة.

–عن أبي سلَّام أن أبا مالك الأشعري حدَّثه أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "أَرْبَعٌ في أُمَّتِي مِنْ أَمرِ الجاهليَّةِ لا يترُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ في الأحسابِ، والطَّعْنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنُّجُومِ، والنِّيَّاحَةُ". رواه مسلم(١)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز–باب التشديد في النيَّاحة (٩٣٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦٦٨٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٩٠/٣، وأحمد في مسنده ٣٤٢/٥، ٣٤٣، ٣٤٤، والطبران في الكبير ٣٨٥/٣، والحاكم في مستدركه ٣٨٣/١، والبيهقي في الكبرى ٦٣/٤.
–ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٢٦٦/١٨.

قد استُهِلَّ الحديث الشريف بأمر مبهم مجمل في قوله: (أَرْبَعٌ في أُمَّتِي مِنْ أَمرِ الجاهليَّةِ)، فتطلعت النفوس للإيضاح والتفصيل، فلما جاء التفصيل في الخبر وهو قوله: (الفَخْرُ في الأحسابِ، والطَّعْنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنُّجُومِ، والنيَّاحَةُ) تمكن المعنى في نفوس السامعين فضل تمكن؛ لأنه صادف نفوسا مهيئة لتلقي الخبر، مستشرفة لمعرفة الأمور التي من خصال الجاهلية وقد نهى عنها الإسلام، ومن ثَم يشتد حرص المسلم على تجنبها والابتعاد عنها والحذر منها، أربع مبتدأ، والجار والمجرور: (في أُمَّتِي) صفة لـ(أربعٌ)، فدلَّت الظرفية المستفادة من حرف الجر (في) على استقرار هذه الخصال في أُمة الإسلام، وانطواء نفوس بعض المسلمين عليها، وتمكنها منهم تمكن الوعاء بما فيه، وقوله: (مِنْ أَمرِ الجاهليَّةِ) صفة أخرى لـ(أربع)، و(مِنْ) بيانية، أوضحت أن تلك الخصال من جنس الأمور الجاهلية التي حرَّمها الإسلام وقضى عليها، وكلمة (الجاهلية) مصدر صناعي يراد به: (الحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين)[١]، أي من صفات أهل الجاهلية المعتادة في زمانهم، والتي طُبعوا عليها، وجملة: (لا يتركُونَهُنَّ) صفة ثالثة لـ(أربع)، وهي جملة فعلية فعلها مضارع منفي بـ(لا) –التي تدخل غالبا على المضارعة فتخلِّصها للاستقبال[٢]–، فأفادت أن هذه الخصال تتجدد في أمة الإسلام، وتستمر حتى قيام الساعة، لا تتركها الأمة بأسرها تركا تاما، فإن تركتها طائفة تمسكت بها طائفة أخرى، فكانت جملة الحال تأكيدًا لمعنى التمكن

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ١٧٦.

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني، للإمام أحمد بن عبد النور المالقي، ت أحمد محمد الخراط: ٢٥٨، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ.

والاستقرار المفاد من الظرفية في (في أُمَّتِي)؛ أي أن هذه الأمور قد خالطت نفوس كثير من المسلمين، وانطوت عليها طبائعهم.

وأول هذه الخصال: (الفَخْرُ في الأحسابِ)، و(الفَخْرُ) خبر المبتدأ (أربع)، والفخر والتفاخر يعني التعاظم والتعالي على الغير بمآثر الآباء، وقد نهى الإسلام عن ذلك، والحسب هو: (ما يعدُّه الرجل من الخصال التي تكون فيه كالشجاعة والفصاحة وغير ذلك، وقيل: ما يعدُّه الإنسان من مفاخر آبائه)[1]، وقد جاء القيد: (في الأحسابِ) بحرف الجر (في) التي للظرفية دون (الباء) التي تفيد ملازمة الفخر للأحساب؛ لأن الظرفية المفادة من (في) تفيد تمحض الفخر في الأحساب، وتمكنه منه بحيث صارت الأحساب مظروفا للفخر تحويه بداخلها؛ مبالغة في مدى تعاظم الفخر بحسب الآباء وتغلغله في الأمة، بحيث يكون المُعَوِّل في رفعة المرء مآثر آبائه ومفاخرهم دون الالتفات للأصل الذي يجب أن يُحمد به الإنسان من تأصل خصال الخير فيه، وتمكن معاني البر والتقوى في نفسه.

وثاني هذه الأمور: (والطَّعْنُ في الأنسابِ)، بالعطف على الخبر (الفَخْرُ في الأحسابِ) قبلها بالواو، ومعناه: (إدخال العيب في أنساب الناس، وتحقير الرجل آباء غيره وتفضيل آبائه على آباء غيره)[2]، والطعن مصدر طعن بمعنى: (وَخَزَهُ بِحربَةٍ ونحوها)[3]، فاستعير الطعن لإدخال العيب في أنساب الناس بجامع إلحاق الضرر والأذى في كل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، فجسدت الاستعارة ذلك الألم المعنوي الذي يُحدثه تعيير الناس وتحقير أنسابهم بالألم

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ١٨٣/٤.

(٢) السابق: ١٨٣/٤.

(٣) لسان العرب: مادة (ط ع ن).

الحسي الذي يُخلِّفه الطعن برمح أو سيف أو غير ذلك، بل إن وقع الكلمة يكون أشد إيلاما للنفس من وقع السيف، وقد زاد من تقوية المعنى وتجسيده معنى الظرفية في حرف الجر (في)، فتمثلت الصورة حيَّة واضحة أمام الأعين، وتجسدت الأنساب بجسد مادي جاز اختراقه بشيء حاد خلَّف وراءه جرحًا نفسيًا غائرًا، لذا حرَّم الإسلام الطعن في الأنساب لارتباطه بإيذاء المسلمين المنهي عنه.

وثالث الأمور: (والاستسقاءُ بالنُّجُومِ) بالعطف على الخبر (الفَخْرُ) قبلها بالواو، والألف والسين والتاء في الاستسقاء تدل على الطلب، أي طلب السقيا وتوقع المطر، والباء في (بالنُّجُومِ) سببية، بمعنى أن اعتقاد المرء نزول المطر بسبب ظهور نجم معين، وربط ذلك بالنجوم دون الله –جلَّ وعلا–، وهذا بلا شك يعد شركًا–والعياذ بالله.

ورابع الأمور: (والنِّيَّاحَةُ)، ومعناها: (البكاء على الميت بصياح وعويل وجزع) [(١)]، وهذا أيضا محرَّم في الإسلام؛ لأنه اعتراض على قضاء الله، فكل ما ينافي الانقياد والتسليم لقضاء الله من النياحة والصياح على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب محرَّم شرعا ولا يجوز البتة، وقد جاء العطف بالواو–التي تفيد الجمع والمشاركة– بين الخصال؛ لدخول هذه الخصال الأربع ضمن الأمور المنهي عنها لكونها من أمر الجاهلية، وعوائدها التي قضى عليها الإسلام.

–عن واصلٍ الأحْدَبِ عن المعرورِ قال: لقيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبْذَةِ وعليه حُلةٌ وعلى غُلامِهِ حُلةٌ، فسألتُه عن ذلك، فقال: إنِّي سابتُ رجلا فَعَيَّرتُه بأُمِّه، فقال لي النبيُّ –صلى الله عليه وسلم–: "يا أبا ذَرٍّ أعيَّرتَه بأُمِّه؟ إنَّك امرُؤٌ فيكَ

(١) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ١٨/٢٦٤.

جاهليَّةٌ، إخوانُكم خَوَلُكم، جعلهم اللهُ تحتَ أيدِيكُم، فَمَنْ كانَ أخُوه تحتَ يَدِه فَلْيُطعِمْهُ ممَّا يأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، ولا تُكلِّفُوهم ما يَغْلِبهُم، فإنْ كلَّفتموهم فأعِينُوهم". رواه البخاري(١)

يُرى في هذا الحديث ألسنة مختلفة، وأساليب من البيان مختلفة، يُرى فيه كلام للمعرور وهو الذي ذكر الأحداث وربط بينها وقص قصتها، وفيه كلام لأبي ذر –رضي الله عنه– ثم كلامه –صلى الله عليه وسلم– الذي "يمثل الصورة النقية الخالصة لجنس كلام الناس، والتي لا تتكرر، وتبقى وحدها أصفى وأرقى كلام جرى به لسان وإن قاربت ألسنة الناس بعض أطرافه، وخالط ما فذَّ منها ونبغ بعض جوانبه"(٢).

إن قول المعرور –رضي الله عنه–: (لقيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبْذَةِ وعليه حُلةٌ وعلى غُلامِهِ حُلةٌ) يُعدُّ تأكيدًا لذكر الحديث بسياقه، وتحديدًا لمكانه: (بالرَّبْذَةِ)، كما أن اتصال الباء بالمكان يعدُّ بابًا من توكيد الحدث؛ لأنه تجسيد يمثل لصوق المكان بالحدث والحدث بالمكان، والتباس كل منهما بالآخر، والرَّبْذَة هي: (موضع بالبادية بينه وبين المدينة ثلاث مراحل) (٣)، وجملة: (وعليه حُلةٌ) حال من (أبا ذَرٍّ)، ومجيء الواو في جملة الحال تفيد أن المعرور أراد الإخبار بأمرين، الأول:

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان– باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم في كتاب الأيمان والنذور، وأبو داود في سننه في كتاب الأدب، والترمذي في الجامع كتاب البر والصلة، وابن ماجة في سننه في كتاب الأدب.

–ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني: ٣٢٦/١، دار الفكر للطباعة والنشر.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د محمد محمد أبو موسى: ٣٠٠.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت عبد العزيز عبد الله بن باز: ٨٦/١.

لقاؤه بأبي ذرٍّ بالربذة، والثاني: كونه لقيه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حُلَّةٌ، والحُلَّة: (هي إزار ورداء، ولا يُسمَّى حُلَّةً حتى تكون ثوبين، وسُمِّيا بذلك؛ لأن كل واحد منهما يحلُّ على الآخر)[١]، وتنكير حُلَّة للتعظيم، ثم في تقديم المسند شبه الجملة (عليه) على المسند إليه (حُلَّة)؛ لبيان أنه الجزء الأهم من الكلام، والذي عليه مدار السؤال ومركز الحوار بينهما، وجملة: (وعلى غُلامِهِ حُلةٌ) معطوفة على جملة الحال بالواو التي تفيد الجمع والمشاركة، بمعنى: لقيت أبا ذرٍّ حال كونه عليه حُلَّةٌ وكذلك حال غلامه عليه حُلَّةٌ مثل حُلَّتِه التي يرتديها، والفاء في قوله: (فسألتُه عن ذلك) دلَّت على الربط المتتابع دون مهلة، أي بادر المعرور –رضي الله عنه– بسؤال أبي ذرٍّ عن سبب إلباسه غلامه نظير لباسه؛ لأن هذا مما لا يُعهد، فأشارت لام البعد في اسم الإشارة (ذلك) إلى بُعد هذا الصنيع عن المألوف عندهم، والمتعارف لديهم.

وجملة: (فقال: إنِّي سابببتُ رجلا فَعَيَّرتُه بأُمِّه) مرتبة على ما قبلها بالفاءالعاطفة؛ لأنها إجابة تحكي القصة التي كانت سببا لحدوث ذلك الأمر، وجاءت مؤكدة بإنَّ واسمية الجملة؛ تحقيقًا لمناسبة الحديث وتوثيقا لسببه، والفعل (سابببتُ) بصيغة فاعل يفيد المشاركة من الجانبين، بمعنى أن كلا منهما شاتم الآخر، وتبادلا السباب بينهما، وتنكير (رجلا)؛ حيث لا يتعلق بتعيينه غرض، وربما كان عبدًا لأبي ذرٍّ –رضي الله عنه–؛ لأن السياق يدل عليه، وجملة: (فَعَيَّرتُه بأُمِّه) معطوفة على جملة (سابببتُ) بالفاء المفسرِة؛ بمعنى أن المعطوف مفسر للمعطوف عليه؛ لأن معنى عيَّرته: (نسبته إلى العار)[٢]، أي عيَّبته، وفي

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني: ٣٢٦/١.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت عبد العزيز عبد الله بن باز: ٨٦/١.

هذا انتقاص منه وطعن في نسبه، فيكون من باب عطف الشيء على نفسه؛ لأن التعيير هو نفس السبِّ- القدح في نسب شخصٍ أو نفسه أو بدنه أو فعله-[1]، فالأصل ألا تكون الفاء؛ لأن الجملة الثانية مفسرة للأولى، وإنما جيء بالفاء؛ لتفظيع الذنب، وكأن أبا ذرٍّ -رضي الله عنه- قد أتى بأمرين عظيمين هما السباب والتعيير، ثم جاء تعدي الفعل (عيَّر) بالباء في (بأُمِّه) وهو متعدٍ بنفسه، فانصبَّ التعيير على الأمِّ، ولزمها لزوما ينتقص من الانتساب إليها، وربما كان هذا الفعل من أبي ذرٍّ -رضي الله عنه- قبل علمه بالتحريم.

وقوله: (فقال لي النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: "يا أبا ذَرٍّ أعيَّرتَهُ بأُمِّه؟ إنَّك امرُؤٌ فيكَ جاهليَّةٌ) معطوف على جملة: (فَعَيَّرتُه بأُمِّه) بالفاء، ولا شك أنَّ بين هذين الفعلين كلامًا دار وأحداثًا جرت، ولكن العطف بالفاء طوى هذا الكلام وتلك الأحداث، وجردت الكلام للمعنى المقصود، فأفادت الفاء الترتيب في رتبة الخطاب وليس رتبة الحدث أو الزمن، وهذا الإيجاز يدل على بلاغة الراوي وقدرته على انتقاء ما هو من أصل المعنى، وتخليص الكلام مما ليس منه، وفي نداء النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي ذرٍّ بحرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد وهو قريب منه؛ للإشعار بغفلة أبي ذرٍّ عن الأمر العظيم والخطأ الجسيم الذي أوقع نفسه فيه دون أن يدري، وأن هذا الأمر مما يقتضي اليقظة له والانتباه إليه، وأما الاستفهام بالهمزة في قوله: (أعيَّرتَه بأُمِّه؟) فهو للإنكار التوبيخي، بمعنى ما كان ينبغي، ثم فُصل بين هذه الجملة وما بعدها: (إنَّك امرُؤٌ فيكَ جاهليَّةٌ) لكمال الانقطاع بلا إيهام، لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً.

وتأكيد كلامه -عليه السلام- بأكثر من مؤكد -إنَّ واسمية الجملة وتقديم المسند في جملة الصفة (فيك) على المسند إليه- يقذف في قلب السامع عنايته الشديدة بمضمون المعنى، وحرصه على بثه مؤكدًا راسخًا في قلب سامعه، كما

(١) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت أ.د محمد إبراهيم عبادة: ٢٠٧، مكتبة الآداب بالقاهرة، ط١ ٢٠٠٤م.

دلَّت الظرفية في حرف الجر (في): (فيكَ) على مخالطة نفس أبي ذرٍّ –رضي الله عنه– لخصلة من خصال الجاهلية، وهذا لا يعني أن يكون المرء جاهليًا أو كأهل الجاهلية في كفرهم بدليل التنكير في (جاهليَّة) الدال على أن التعالي على المسلمين بالتفاخر بالأنساب خُلُقٌ منكور مجهول لا ينبغي أن يكون من المسلم، يأثم المسلم بسببه ولكن لا يخرجه هذا عن الإسلام، والمعنى: (أنك في تعييره بأُمِّه على خُلُقٍ من أخلاق الجاهلية؛ لأنهم كانوا يتفاخرون بالأنساب، فجهلت وعصيت الله في ذلك)[١]، ولعل هذا كان من أبي ذرٍّ –رضي الله عنه– قبل أن يعرف تحريم ذلك، فكانت هذه الخصلة الجاهلية باقية في نفسه؛ لأنه –رضي الله عنه– من الإيمان والتقوى بمنزلة عظيمة، وإنما كان التوبيخ منه –صلى الله عليه وسلم– له؛ لعظيم منزلته عنده، وتحذيرًا له ولغيره من معاودة ذلك الصنيع الذي يُعدُّ إيذاءً لمشاعر إخوانه من المسلمين.

وقوله –صلى الله عليه وسلم–: (إخوانُكم خَوَلُكم) فُصِل عما قبله لشبه كمال الاتصال؛ لأنها بمنزلة جواب عن سؤال مقدر من الجملة الأولى (إنَّك امرُؤٌ فيكَ جاهليَّةٌ)، والتقدير: لمَ وصفته بذلك؟ وقد بُنيت الجملة على القصر بتقديم المسند (إخوانُكم) على المسند إليه (خَوَلُكم)، فأصل الكلام: خولكم إخوانكم، فقصر الخول على الإخوان، أي ليسوا إلا إخوانًا لكم، والخول هم: (الخدم، وسُمُّوا به؛ لأنهم يتخولون الأمور أي يصلحونها) [٢]، وجملة: (جعلهم اللهُ تحتَ أيدِيكُم) خبر ثانٍ للمبتدأ المؤخر (خَوَلُكم)، تبرز الحقيقة الواضحة التي لا جدال فيها، وهي أن كون الخول أو الخدم رهن تصرفكم فليس لكم فضل في هذا ولا يد، وإنما هو من فضل الله عليكم، فإسناد الفعل (جعل) إلى لفظ الجلالة وتقديم المفعول به

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال أبي الحسن عليين خلف بن عبد الملك، ضبطه أبو تميم ياسر بن إبراهيم: ٨٥/١، مكتبة الرشد بالرياض.

(٢) الكواكب الدراري المسمى صحيح البخاري بشرح الكرماني: ١٣٩/١، دار إحياء التراث العربي بيروت–لبنان، ط١ ١٩٣٧م.

(هم) على الفاعل نصٌّ في أن الله –جلّ وعلا– هو الذي قدَّر هذا الأمر، وأجرى عليهم حكمكم، وليس لمخلوق أي فضل في ذلك، ومن ثم لا يجوز لأحد أن يُعيِّرَ عبده بشيء مما يكرهه في آبائه وخاصة نفسه، فقوله: (تحتَ أيدِيكُم) كناية عن مِلك زمامهم، ومطلق التصرف فيهم والقدرة عليهم.

والفاء في قوله: (فَمَنْ كانَ أخُوه تحتَ يَدِه فَلْيُطعِمْهُ ممَّا يأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ) فصيحة دلت على شرط مقدر أي: إذا علمتم أنَّ خولكم إخوانكم فمن كان أخوه .....، و(مَنْ) اسم شرط، وجملة (كانَ أخُوه تحتَ يَدِه) فعل الشرط، والجواب (فَلْيُطعِمْهُ ممَّا يأكُلُ)، والتعبير بالفعل (كان) يُعدُّ تأكيدًا لنعمة جعل الخدم رهن تصرفكم، وكونكم مالكين زمام أمرهم، وأنكم قد اعتدتم وألفتم هذا الأمر منهم، ثم في تكرار لفظ الأخوة ترسيخ لمبدأ المساواة بين المسلمين، وتذكير بضرورة معاملة الخادم أو العبد أو الأجير بما تقتضيه الأخوة في الإسلام من الرفق بهم وعدم الاستطالة عليهم أو الانتقاص من شأنهم، واللام في قوله: (فَلْيُطعِمْهُ) لام الأمر الداخلة على المضارع فأكسبته معنى الإلزام والوجوب، وقيل: (الأمر للاستحباب) [1]، وفي إيثار التعبير بالإطعام دون الأكل– فلم يقل فيؤكله–؛ "إشارة إلى أنه لا بدّ من إذاقته مما يأكل وإن لم يشبعه من ذلك الأكل"[2]، فضلا عما يفيده حرف الجر (مِن) من معنى التبعيض، أي بعضا من طعامه دون شرط إشباعه، أما الإبهام في الاسم الموصول (ما) مع حذف المفعول فيشيران إلى التعميم؛ ليشمل كل طعام يأكله فلا بدّ له أن يذيق عبده أو خادمه منه، وجملة (ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ) معطوفة على جملة الجواب بالواو التي تفيد الجمع والتشريك في الحكم، ووجود المناسبة المسوغة للوصل وهي أن مضمون كلا الجملتين تحقيق لمعنى الأخوة والمساواة التي حث عليها الإسلام،

(١) الكواكب الدراري المسمى صحيح البخاري بشرح الكرماني: ١٤٠/١.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني: ٣٢٩/١.

وصيغة المضارع في الفعلين (يُطعم، يُلبس) تدل على المداومة على ذلك ممن ملَّكه الله زمام أمر غيره، وجعله طوع أمره.

وجملة: (ولا تُكلِّفُوهم ما يَغْلِبهُم) جملة نهي إنشائية معطوفة على جملة (فَلْيُطعِمْهُ ممَّا يأكُلُ) بالواو، فالوصل لاتفاق الجملتين في الإنشائية، والمعنى أن الأصل عدم تكليف الخدم ما لا يطيقون فعله، ولا يستطيعون الدوام عليه، ومعنى كلَّف بالتضعيف: (أي أمره بما يشق عليه، وتكلَّفتَ الشيءَ: تجشَّمتَه على مشقةٍ وعلى خلاف عادتك)[١]، فتناسب هذا المعنى والإبهام في المفعول به (ما)؛ الدال على معنى التفخيم والتهويل، أي لا تكلفوهم من الأعمال ما يصعب عليهم إنجازه لعظمته أو صعوبته، وجملة: (فإنْ كلَّفتموهم فأعِينُوهم) معطوف على ماقبله بالفاء الفصيحة، التي أفادت العطف على محذوف، والتقدير: إن اضطررتم فكلَّفتموهم فأعِينُوهم، كما حُذف المفعول الثاني لدلالة السياق عليه، والتقدير: فإنْ كلَّفتموهم ما يغلبهم، وتقييد الشرط بـ(إنْ)؛ للدلالة على أن هذا التكليف الأصل فيه ألا يكون، ولا يحدث إلا نادرًا، فإن حدث و كلَّفتموهم ما يغلبهم فينبغي أن يترتب على ذلك التكليف الشاق جواب الشرط: (فأعِينُوهم)، بالفاء الدالة على وقوع الإعانة لهم فور تكليفهم ما يصعب عليهم ويشق بلا إبطاء ولا ريث؛ رحمةً بهم، ولطفًا بضعفهم، ومن ثم ينبغي على كل مَنْ ملك زمام أمر ضعيف كالخادم أو الأجير أن يُحسن إليه، ولا يُفضِّل نفسه في العيش عليه، فيُطعمه مما يطعم، ويُلبسه مما يلبس، ولا يكلِّفه من العمل ما لا يستطيع، فإن كلَّفه ما يشق عليه لزم على المالك إعانته بنفسه أو بغيره؛ رحمةً به وبضعفه.

(١) لسان العرب: مادة (ك ل ف).

المبحث الثالث: التقوى أساس التفاضل عند الله.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: النَّاسُ في الأصلِ أُمَّةٌ واحدةٌ.

المطلب الثاني: التفاضل في الإسلام بالتقوى والعمل الصالح.

المطلب الأول: النَّاسُ في الأصلِ أُمَّةٌ واحدةٌ

الناس في الأصل أمة واحدة، أبوهم واحد وهو آدم –عليه السلام– وأُمهم واحدة وهي حواء، فالناس جميعا ينحدرون من أب واحد وأُمٍّ واحدة، فعلى المرء ألا يفخر بأصله ونسبه؛ لأن الكلَّ في ذلك سواء، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات: ١٣)، فقد ساوى المولى سبحانه وتعالى بين الناس في الأصل والخِلقة، فقد خلقهم جميعا من ذكر واحد وأنثى واحدة وجعلهم شعوبا وقبائل بغية التعارف والتقارب بينهم لا التناكر والتفاخر بالأنساب، فالاختلاف الكائن بين الناس إنما وُجد ليُكمِّل بعضهم بعضا، ويتعاون الجميع في إعمار الأرض، وقد كرَّم الله سبحانه وتعالى بني آدم كلهم بلا استثناء، فجنس الإنسان كله مكرم عند الله بلا تفرقة بين قبيلة وأخرى أو جنس وآخر أو عرق دون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[الإسراء:٧٠]، فالتفاضل لا يجري فيما لا يملكه الإنسان كأصل الخلق والتكوين، وإنما يكون التفاضل فيما يملكه، وفيما قدمت يداه من الفضل والخير والطاعات وعمل الصالحات.

–عن أبي نضرة قال: حدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خطبة رسولِ الله–صلى الله عليه وسلم– في وسط أيام التشريق، فقال: "يا أَيُّها النَّاسُ، ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أَبَاكُم واحدٌ، أَلا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى، أبلغتُ، قالوا: بَلَّغَ رسولُ اللهِ". رواه أحمد(١)

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٤٣٩).

قد استهلَّ النبي–صلى الله عليه وسلم– خطبته بالتنبيه عن طريق النداء في قوله: ("يا أَيُّها النَّاسُ)؛ تهيئة للمخاطبين عن طريق تشويقهم لمعرفة ما سيلقى عليهم؛ لأن ما يحدثُّهم بشأنه أمر عظيم يجب الانتباه إليه، فكان النداء بالحرف الموضوع لنداء البعيد (يا)؛ لفتًا منه –عليه السلام– إلى عظم المعاني التي نودوا من أجلها، وهي أن الناس من حيث الخِلقة سواء لا يتفاضلون بالمظهر ولا الجنس ولا العرق ولا اللون ولا النسب، وإنما التفاخر والتفاضل يكون بالفضائل وزيادة التقوى، فناسب هذا الغرض النداء بلفظ (الناس) دون المؤمنين أو المسلمين؛ لمناسبة ما نودوا من أجله وهو التذكير بأن أصلهم جميعا واحد، وزاد من التشويق لمعرفة الخبر كلمة (ألا) الاستفتاحية في قوله: (ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ)، إذ لا يُستفتح بها إلا كلام ذو خطر وشأن عظيم، ثم كان التوكيد بعدها بإنَّ واسمية الجملة؛ ليزيد الكلام تقريرًا وتوكيدًا وتمكينًا، ثم عُطِف عليها جملة: (وإنَّ أبَاكُم واحدٌ) بالواو التي جعلت من الجملتين جملةً واحدةً؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد، فالعطف بالواو للتوسط بين الكمالين ووجود مناسبة مسوغة للعطف وهي أن الجملتين تقرران انتفاء التفاضل بين الناس بالنسب؛ لأنه إذا كان الربُّ واحدًا والأب واحدًا لم يبقَ لدعوى التفاخر أي أساس من الوجود، فالكلُّ في الخِلقة واحدٌ وفي الأصل واحدٌ، والجميع في هذا متساوون أمام الله الخالق العظيم.

ثم قُطع الكلام لاستئناف معنى آخر وثيق الصلة بالغرض المسوق له الكلام، فقال –عليه السلام–: (أَلا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى)، فإذا كانت الجملتان الأوليان تؤكدان معنى المساواة بين الناس من حيث الأصل والنشأة، فهذه الجملة وما عُطِف عليها تقرر هذا المعنى وتُفَصِّله، وتكرار حرف (ألا) الاستفتاحية زاد الاستئناف وضوحا، والمعنى بيانا وتمكينا؛ إذ ينبه بها إلى أهمية المعاني الواقعة بعدها؛ لأنها من الأحكام التي تحتاج إلى هذا التمكين بأسلوب

فيه تودد وتلطف وتحضيض، وهذا من شأنه تهيئة النفوس تهيئة حسنة لتلقي هذه الأحكام وامتثالها جيدًا، والتقوى الواقعة بعد حرف الاستثناء (إلا) في قوله: (إلا بالتقوى) مقصور عليه، والمعنى قصر الأفضلية على التقوى وحدها ونفيها عمَّا سواها، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا.

ومن اللافت للنظر أن مقدمة الحديث: (ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أبَاكُم واحدٌ) قد بُنيت على الاختصار والإجمال بينما بُني القسم الثاني المستأنف: (أَلا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى) على الإشباع والتفصيل، وكأن هذا الاختصار كان مقدمة لهذا البسط، فدلَّ التفصيل وإشباع المعنى على الحفاوة بتقرير تلك المعاني، وبثها مؤكدة في نفوس السامعين، وأول صور إشباع المعنى تكرار حرف (ألا) الاستفتاحية، ثم تكرار حرف (لا) النافية الزائدة بعد واو العطف؛ لانتفاء وجود أي تفاضل بين الناس باعتبار هذه الأمور كالجنس والعرق والنسب واللون، والإشارة إلى استقلال كل أمر منهم بانتفاء الأفضلية، والنهي عن التفاخر به، ثم حذو بناء الجمل حذوا واحدًا مع الاختلاف في ترتيب الألفاظ من تقديمها تارة وتأخيرها أخرى، وهو ما يسمى بـ(العكس والتبديل)، فوقع العكس والتبديل بين الجملتين المعطوفتين؛ لتأكيد انتفاء التفاضل البتة بأي وجه من تلك الوجوه المذكورة قبل أداة الاستثناء، وقصر التفاضل في الإسلام فقط على التقوى.

أمَّا الترتيب بين الجمل بتقديم نفي تفاخر العربي على العجمي[1] في قوله: (أَلا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ) على قوله: (ولا لعجميٍّ على عربيٍّ)؛ لأنهم هم

(١) العجم: هم خلاف العرب، أما الأعجم هو الذي لا يُفصح ولا يبين كلامه، فتقول رجل أعجميّ: إذا كان لا يُفصح كان من العجم أو من العرب، وتقول رجل عجمي: إذا كان من الأعاجم فصيحًا كان أو غير فصيح.

-ينظر: لسان العرب: مادة (ع ج م).

المعنيُّون بهذا الأمر؛ لما اشتُهر لديهم قديمًا من النعرات القبلية القائمة على التفاخر بالأنساب واحتقار غيرهم من القبائل، وتراث العرب قديما شعرًا ونثرًا يموج بالكثير والكثير من أمثال تلك النعرات الجاهلية، ودعاوى التمييز العرقي بين الناس، كما يُلاحظ أيضا أن جمل الحديث لا تكاد تخلو من التوكيد، وهو الصادق المعصوم الذي لا يحتاج إلى تأكيد كلامه الذي هو وحي يُوحى، وإنما كان كل هذا التوكيد؛ للدلالة على أهمية الشأن الذي دعا الناس وناداهم من أجله، وهو تعظيم أمر الأخوة بين المسلمين، ونبذ كل ما من شأنه بث الفرقة بينهم، ثم إنه –عليه السلام– لم يكتفِ بهذا، وإنما قال في نهاية كلامه: (أبلغتُ) بهمزة الاستفهام التقريري، وفي هذا إلزام وتأكيد على تأكيد، وقول صريح في أنه –عليه الصلاة والسلام– لم يقل ما قاله لأصحابه وكل من سمع خطبته من عند نفسه بل هو وحي الله له، وبلاغ يبلِّغُهُ –صلى الله عليه وسلم–، فردَّ الصحابة والشهود قائلين: (بَلَّغَ رسولُ اللهِ)، فجاء جوابهم مناسبا لمعنى الاستفهام التقريري أشد مناسبة؛ فلم يقولوا: (نعم)، بل أقروا بالتبليغ، وليس ذلك فحسب، بل عبَّروا بالاسم الظاهر دون الضمير، فلم يقولوا: (بلَّغتَ)؛ زيادة في تمكين المعنى وتقريره، فضلا عن التعريف بالإضافة في قولهم: (رسولُ اللهِ) دون غيرها من المعارف؛ تعظيما له –صلى الله عليه وسلم–، وبيانا لمكانته من ربه جل وعلا، وتأكيدًا أن ما قاله –عليه السلام– من عند الله الذي أنبأه به، وأوحاه إليه، وأمره بتبليغه.

–وعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ، أنَّ رسولَ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– قال: "إنَّ أنسابَكم هذه ليست بسبابٍ على أحدٍ، وإنَّما أنتم ولدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوه، ليسَ لأحَدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بالدِّين أو عَمَلٍ صالحٍ، حَسْبُ الرجُلِ أنْ يكونَ فاحشًا بذيًّا بخيلًا جبانًا". رواه الإمام أحمد(١)

استُهِل الحديث الحديث الشريف بوجوه من أساليب التوكيد، أولها حرف التوكيد (إنَّ)، ثم اسمية الجملة؛ لمزيد عناية النبي –عليه السلام– بالمعنى، ثم تجسيد المعنى في ذهن السامع وتمييزه أكمل تمييز عن طريق الإشارة إليه باسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا)، وهذا ليس من أساليب التوكيد الصريحة، بل يعدُّ توكيدًا ضمنيًا؛ لأن اسم الإشارة يُمكِّن المعنى في ذهن السمع أشد تمكين، لأنه بطبيعته يحدد المشار إليه تحديدًا ظاهرًا، ويبرزه إبرازًا تاما، وبذلك تجسدت الأنساب وصارت شيئا ملموسًا حسيًا يمكن الإشارة إليه، أي إن أنسابكم المعروفة المشهورة بينكم، ومن وجوه التوكيد أيضا تسلط النفي في جملة الخبر على النكرة في قوله: (ليست بسبابٍ على أحدٍ)، فأفاد العموم بمعنى أن أنسابكم المعروفة بينكم ليست محلا للسباب والشتم والعار على أحد منكم مهما كان نسبه، والباء في (بسبابٍ) للسببية؛ أي سببا في السبِّ، أمَّا حرف الجر (على) فهو يجسد استعلاء السابِّ على المسبوب، ويبرز تفاخره عليه بنسبه واحتقاره إياه.

---

(١) إسناده حسن، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٣١٣)، والطبراني في التفسير ١٤٠/٢٦، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٤٥٩) من طريق عبد الله بن وهب، والطبراني في الكبير ٨١٤/١٧ من طريق سعيد بن أبي مريم، وكلاهما عن أبي لهيعة بهذا الإسناد.

–ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد:٥٤٨/٢٨، مؤسسة الرسالة، ط١ ٢٠٠١م.

وجملة: (وإنَّما أنتم ولدُ آدَمَ) مفسرة لعلة تحريم التطاول بالنسب على الآخرين وسببه، والأصل ألا تكون هذه الواو؛ لأن الجملتين متصلتان من ذات أنفسهما، إلا أن مجيء الواو ألمح بأن الجملة المفسرة تحمل أيضا مع تفسير سبب تحريم الطعن في الأنساب برهانًا قاطعا ودليلا ساطعًا يستأصل شأفة هذه العادة الجاهلية من الجذور، فناسب ذلك القصر بـ(إنَّما) التي يؤتى بها في المعاني المأنوسة المُسَلَّم بها؛ لأنها حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، وللإشعار من أول وهلة أن البشر كلهم مهما علا نسبهم محصورون في الانتساب لأصل واحد، وهو آدم –عليه السلام–، ومن ثَم سقطت دعوى التفاخر بالأنساب، ولم يكتف –صلى الله عليه وسلم– بهذا فحسب بل أشبع المعنى وزاده جلاءً ووضوحًا عن طريق التشبيه التمثيلي في قوله: (طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوه)؛ إذ شبَّه حال البشر جميعا في تساويهم وتقاربهم من حيث النسب بحال تقارب ما في الصاع أو المكيال حال كونه لم يُمْلَئ مِلئًا تامًا، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من التقارب والمساواة، وجملة الخبر الفعلية المنفية بلم: (لَمْ تَمْلَئُوه) تأكيد لمعنى المساواة بين الناس في أصل الخِلقة، أي أنكم لم تملؤوه، فلا يزيد أحد على أحد، فكلكم سواء في النقص وعدم التمام.

وجملة: (ليسَ لأحَدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بالدِّين أو عَمَلٍ صالحٍ) جملة مستأنفة، فأشار القطع والاستئناف إلى أهمية المعنى المنتقل إليه، وأنه من الأهمية بمكان، ذلك أن الجملة حصرت التفاضل بين الناس على الدين وصالح الأعمال عن طريق القصر بالنفي والاستثناء، أشد طرق القصر توكيدًا؛ لأنه لا يؤتى بها إلا في المعاني المنكرة أو المجهولة، فأفاد قصر التفاضل على الدين والعمل الصالح ونفيه عن الأحساب والأنساب قصر قلب، يقلب اعتقاد المخاطبين، وما رسخ في وجدانهم، ويزلزله زلزالا شديدًا؛ لإثبات أن وجه الأفضلية بين الناس مقصور فقط على الدين والعمل الصالح، وفي اتصال الدين بالباء دلالة على لصوق التفاضل بالدين وملازمته له، وبدون الدين لا كرامة للعبد، ولا أفضلية له عند الله –عزّ وجلّ–، وتعريف الدين بحرف التعريف (أل)

يعني أنه الدين الحق المعروف الذي هو الإسلام والتمسك بشرائعه وتجنب نواهيه، ثم في عطف (عمل صالح) على (الدين) بـ(أو) يُعد من باب عطف الخاص على العام؛ لأن العمل الصالح جزء من الدين، فعطف على الدين؛ تعظيما لشأنه، وبيانًا أنه لا يصح الدين إلا به، ولا يتم إلا بتحققه، والعمل الصالح لا يعني فقط التكاليف الشرعية كالصلاة والصوم والزكاة والحج والذكر، بل هو معنى جامع لكل أبواب الخير، فكل ما تصلح به الأُمَّة وحياة العباد فهو عمل صالح، ومن ثَم فالأفضلية ليست لمن التزم فقط بتكاليف الدين وأوامره ونواهيه بل لا بدَّ من اقترانها بالسعي الدؤوب والعمل بجد بغية نفع الأُمَّة وصلاحها ورفع شأنها.

وقوله –عليه الصلاة والسلام–: (حَسْبُ الرجُلِ أنْ يكونَ فاحشًا بذيًّا بخيلًا جبانًا) جملة مؤكِدة لمضمون معنى القصر في الجملة قبلها؛ فإذا كان الفضل مقصورًا على الدين المقرون بالعمل الصالح، فإن العبد لا يرفعه نسبه إذا كان فاسد الطبع سيئ الأخلاق، فالفصل بين الجمليتن لكمال الاتصال، وحَسْبُ: (اسم بمعنى كفى)[١]، ومعنى حسب الرجل أي يكفيه، والتمييز محذوف، تقديره: (حَسْبُه مسبةً أو عارًا أو نقصانًا) [٢]، وخبر المبتدأ حَسْبُ جملة: (أنْ يكونَ فاحشًا بذيًّا بخيلًا جبانًا)، وجملة الخبر بيان للتمييز المحذوف، ومعنى الفاحش: (ذو الفحش في كلامه وفِعاله، والفحش: كل ما يشتدُّ قبحه من الذنوب والمعاصي)[٣]، أمَّا البذاءة فهي: (الفحش في القول) [٤]، وعليه فإن قوله: (بذيًّا) عطف بيان لـ(فاحشًا)، وفي ترك العطف بين الصفات الأربع (فاحشًا بذيًّا بخيلًا

(١) لسان العرب: مادة (ح س ب).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ١٣١/٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي: ٦٩٣.

(٤) السابق: ٦٩.

جبانًا) إشارة إلى اكتمالها كلها في صاحبها، فهذه الصفات كلها تعود إلى أصل واحد وهو انتقاص دين المرء، والذي يُعد هو المعول في الفضل والكرامة للعبد عند ربه جلّ وعلا، فضلا عن التعبير باسم الفاعل؛ للدلالة على ثبوتها في العبد العاصي ولزومها له، هذا بالإضافة إلى التعبير عن الخبر بالمصدر المؤول عن طريق (أنْ) المصدرية الداخلة على الفعل المضارع (يكون) دون الصريح؛ لتأكيد حدوث هذه الصفات منه في كل وقت، فيما مضى وفيما سيأتي؛ لدلالة الفعل على الحدث والزمن معا، بخلاف المصدر الصريح الدال على الحدث مجرد عن الزمن، فيفيد تجدد حدوث هذه الخصال الذميمة منه في كل وقت واستمرارها، فهو جامع بين إطالة اللسان وتقصير اليد بالإحسان ومعاونة الآخرين صدقة أو شجاعة أو مروءة، وهذا بالطبع يكفيه سُبةً وعارًا ونقصانًا، فمهما علا حَسَبُه وشرف نسبه فهو لا يُغني عنه من الله شيئًا.

-عن أبي حسَّانَ عن عليٍّ، أنَّ النبيَّ-صلى الله عليه وسلم- قال: "المؤمنونَ تَكَافأُ دماؤهم، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم، يسعَى بِذمَّتِهم أدناهُم، لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بكَافِرٍ، ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِهِ". رواه النّسائي[1]

الحديث الشريف نصٌّ في أن دماء المسلمين متساوية في القصاص والقود، حيث يُقاد الشريف منهم بالوضيع، والكبير بالصغير، والعالم بالجاهل، والمرأة بالرجل، خلافا لما كان عليه أهل الجاهلية؛ إذ كانوا يقتلون بالشريف عددا من أفراد قبيلة القاتل، ولا يرضون أبدا بالاقتصاص من قاتله الوضيع، فأكدت الشريعة الإسلامية أن دماء المسلمين في القصاص والدية متساوية دون استثناء،

(١) حديث صحيح، أخرجه النسائي في كتاب القسامة- باب القود بين الأحرار والمماليك (٤٧٣٥)، وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده (٩٩١)، أبو داود في سننه (٤٥٣٠)، وأحمد في المسند ١٢٢/١.

-ينظر: سنن النسائي المجتبى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت محمد رضوان مرقوسي، محمد أنس مصطفى: ٣١/٨، دار الرسالة العالمية، ط١ ٢٠١٨م.

فكان التعريف بـ(أل) في لفظ (المؤمنون) لإفادة الاستغراق الحقيقي لجميع الأفراد التي يتناولها لفظ المؤمنين بحسب الوضع، والمؤمن هو من اتصف بالإيمان الذي هو: (إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبيُّ– صلى الله عليه وسلم–، واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك) [١]، والفعل (تكافأُ) بحذف إحدى التاءين، وأصله تتكافأُ بمعنى: (تتساوى دماؤهم في الديات والقصاص)[٢]، وجملة: (وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم) معطوفة على الجملة قبلها: (المؤمنونَ تَكَافأُ دماؤهم) بالواو للتوسط بين الكمالين، ووجود المناسبة الظاهرة بينهما وهي أنه بما أن المؤمنين متساوون أمام الله عزّ وجلّ في الحقوق والواجبات فالأحرى بهم واللائق بحالهم أن يكونوا أخوة، ويدًا واحدةً على عدوهم، مشبها حال اتحادهم وتماسكهم باليد الواحدة بحيث لا يمكن أن يميل بعض أصابع اليد الواحدة إلى جانب والآخر إلى جانب آخر، ومن ثَم ينبغي على المؤمنين أن يتحدوا ليصبحوا كيانًا واحدًا ،وقوة واحدة لا يمكن لعدوهم كسر شوكتهم، وقد أضفى حرف الجر (على) في قوله: (على مَنْ سِوَاهم) معنى الغلبة والقوة والهيمنة لجانب المؤمنين المتحدين على عدوهم، وفرض سيطرتهم بشكل يزلزل قلوب أعدائهم.

وجملة: (يسعَى بِذمَّتِهم أدناهُم) مؤكِدة لمضمون معنى المساواة في الجملة الأولى: (المؤمنونَ تَكَافأُ دماؤهم)، لذا فصل لكمال الاتصال؛ لأن مضمون الجملة تطبيق عملي لمعنى المساواة بين المسلمين، وفي تخصيص الذمة –العهد والكفالة[٣]– دون سائر الحقوق؛ لأن المعهود عند العرب قديما أن إعطاء حق

(١) لسان العرب: مادة (أ م ن).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ٣٠/٥.

(٣) لسان العرب: مادة (ذ م م).

الذمة لا يكون إلا ممن هو كفؤ لأن يُجير ويُعطي العهد لمن استجار به، وذلك بأن يكون من السادة والأشراف ذوي الحسب والنسب الذين لا يمكن لأحد إخفار ذمتهم ونقض عهدهم، فأوضح النبي- عليه الصلاة والسلام- أن المؤمنين متساوون في حق الذمة أيضا، تقويضًا لما عهده العرب في الجاهلية من حيث التفرقة في ذلك، بمعنى أن أدنى المؤمنين أي أقلهم عددًا أو أقلهم رتبةً ومكانةً كالعبد أو المرأة من حقه أن يسعى بحق الذمة لأي أحد حتى لو كان كافرًا، فإذا عقد ذلك وجب على الجميع الالتزام به، لذا قُدِّم الجار والمجرور (بِذمَّتِهم) على الفاعل (أدناهم)؛ لأنه معقد المساواة وأصل غايتها، إذ كانت قبل الإسلام حكرًا على السادة والأعيان فقط، ثم عُدِّي الفعل (يسعى) بالباء دون إلى؛ لأن (السعي إذا كان بمعنى المضي عُدِّيَّ بإلى)[1]، وليس المراد هنا حصر السعي في معنى المشي والعدو فقط، فأفاد التعدي بالباء إشراب فعل السعي جميع المعاني المرتبطة به، ولزومها جميعا، وهي: (سعى إذا عدا، وسعى إذا مشى، وسعى إذا عمل، وسعى إذا قصد) [2]، فمن سعى لإجارة أحد بأي من هذه المعاني بالعدو أو القصد أو المشي أو العمل وجب الالتزام بحق إجارته وعدم إخفاره في ذمته.

ثم قُطع الكلام لاستئناف معنى جديد: (لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بكَافِرٍ، ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِهِ)، ومعنى الجملتين ينحدر ويتفرع من الجملة الأم في أول الحديث (المؤمنونَ تَكَافأُ دماؤهم)، لأن هذه الجملة تأسيس في بيان تساوي المؤمنين في الدية والقصاص، فليس أحد أفضل من أحد في هذه الواجبات، وفي الجملتين: (لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بكَافِرٍ، ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِهِ) انتقل الكلام بطريق القطع والاستئناف لبيان معنى جديد وهو اختلاف هذه الحقوق بين المسلمين وغيرهم

(١) لسان العرب: مادة (س ع ا).

(٢) السابق: مادة (س ع ا).

من الكفار، فنهى –صلى الله عليه وسلم– أن يُقتل مؤمنٌ بكافر، فالباء هنا سببية، أي بسبب قتله للكافر، والمراد بالكافر هنا الكافر الحربي وليس المعاهد أو الذميّ بدليل العطف في الجملة بعدها: (ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِهِ) بالواو التي تفيد امتداد النهي وتحريم قتل ذي العهد، أي صاحب عهد من الكفار في مدة عهده، فأفاد العطف دفع توهم أن تحريم القود بقتل المسلم الكافر يدخل فيه أيضا المعاهد، فيظن المعاهد أن حكمهما سواء، ومن ثم كان تكرار (لا) النافية في الجملة الثانية بعد واو العطف تأكيدًا لحظر دماء المعاهدين، ودفعًا لهذه الشبهة، كما أفادت الظرفية الزمانية (في عهده) تعلق النهي عن قتل المعاهد مدة دوامه في العهد، لأنه صاحب ذمة وأمان من المسلمين، والمعاهد هو: (من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما تطلق على أهل الذمة وغيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما)[1]، فالجملة الثانية فيها تحذير واضح من قتل المعاهدين بدون وجه حق، فيحرم على المسلم قتل المعاهد الذي أُعطي الأمان والعهد ما لم يخفر هو وينقض عهده مع المسلمين، فالمسلمون عند شروطهم لا يخفرون ذمتهم، ولا ينقضون عهدهم أبدا.

(١) السابق: مادة (ع هـ د).

المطلب الثاني: التفاضل في الإسلام بالتقوى والعمل الصالح.

إن المعيار الحقيقي الذي ينبغي أن نقيس به الناس هو معيار التقوى وما يتصل بها من حسن دين وعمل، فأكرم الناس على الله –جل وعلا– وأقربهم منه منزلة هم الأتقياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، والتقوى محلها القلب، والمطَّلع على ما في القلب هو الله سبحانه وتعالى، أما العباد فيعرفون التقيَّ بما يظهر عليه من من آثارها في أحواله وأقواله وأفعاله، فصلاح عمل الجوارح يدلُّ على صلاح القلب، والله تعالى يتولى السرائر، أما جمال المظهر أو كثرة المال أو شرف النسب فكلها أمور لا قيمة لها مع فساد المخبر وسوء الخُلُقِ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون﴾ [سبأ:٣٧]، فالعبرة بطهارة القلب ونقائه من أخلاق السوء.

–عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: "إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأَعمَالِكُمْ". رواه مسلم(١)

استهلال الحديث الشريف بالتوكيد يشير إلى الحفاوة بالمعنى والحرص على تقريره في نفوس السامعين، فضلا عن تعريف المسند إليه بلفظ الجلالة (الله) الجامع لكل صفات الكمال والجلال دون التعبير بربكم؛ لتربية المهابة في

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة–باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجة في الزهد (٤١٤٣)، وأحمد في مسنده ٢/٢٨٥، ٥٣٩، وابن راهويه في مسنده ١/٣٦٩، وأبو نعيم في الحلية ٧/١٢٤، وابن حبان في صحيحه (٣٩٤)، وابن منده في الإيمان ١/٤٦٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٢٨، والبغوي في شرح السنة (٤١٥٠).
–ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٤٠/٣٨٧.

نفوس السامعين، ولفت نظرهم لفتًا شديدًا إلى ما يُلقى؛ لأنه ركن الإيمان وجوهره، ومعنى قوله: (إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ) أي لا ينظر إليها فيثيبكم عليها، ولا يقربكم منه بسببها، فهو –سبحانه وتعالى– الذي خلقكم على هذه الصور، وهو الذي رزقكم وأنعم عليكم بأموالكم، فلا وجه للتفاضل بها أمام الله، فنظر الله تعالى للعبد يكون بقدر ما وقر في قلبه من التقوى، وفي عمله من الصلاح، كما يقول –عليه الصلاة والسلام–: (ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأَعمَالِكُمْ)، فالواو أفادت المغايرة بين معنى ماقبلها ومعنى ما بعدها، أي انتفاء النظر للصور والأموال وإثباته للقلوب والأعمال، كما أفاد الاستدراك في الحرف (لكنْ) قصر نظر الله –جل وعلا– على قلوب العباد وأعمالهم نظر مجازاة وإثابة، ونفيه عن صورهم وأموالهم، قصر قلب، والاقتران بين القلوب والأعمال بالواو في قوله: (قُلُوبِكُم وأَعمَالِكُمْ)؛ للدلالة على أن العبد مُكلَّف بإصلاح باطنه وظاهره معا، فإصلاح الباطن دون الظاهر يُعد نقصا في إيمان العبد، أما إصلاح الظاهر دون الباطن فهو من النفاق المنهي عنه، وتقديم القلوب على الأعمال؛ لأن "أعمال القلوب هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلَّفه، مُخلص له فيما يعمله"(١)، فقُدِمت القلوب على الأعمال لبيان أهمية إخلاص القلوب في قبول الأعمال؛ لأنها محل التقوى، فعلى العبد أن يجاهد نفسه ويجتهد في إصلاح قلبه وتطهيره مما يفسده، وأن يكون حريصًا على أن تكون أعماله خالصة لوجه الله الكريم، وموافقة لما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة حتى تكون أعماله مرضية مقبولة عند المولى –عز وجل.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام الحافظ أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت محيي الدين ديب مستو، يوسف علي بديوي: ٥٣٨/٦.

-إن التوجه إلى الله -عز وجل- وإخلاص النية شرط في قبول العمل، **فعن أَبِي مُوسَى الأشعريّ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ- صلى الله عليه وسلم- عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعةً، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ رِيَاءً، أيُّ ذَلِكَ في سبيلِ اللهِ؟ فقال رَسُولُ اللهِ - صلّى اللهُ عليه وسلم-: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، فهو في سبيلِ اللهِ"** . رواه مسلم(١)

لم يذكر الصحابي الجليل اسم السائل ولا شك أنه يعرفه، لكنه بنى الفعل (سُئِلَ) للمجهول؛ لتخليص الكلام للغرض المراد منه، فتعيين السائل لا يتعلق بذكره أي غرض، واللام في (الرجل) هي لام الحقيقة أو الجنس يراد بها فرد غير معين من أفراد حقيقة الرجال، لاستحالة أن يراد به كل رجل أو فرد معين من أفراد الرجال؛ إذ لا عهد به في الخارج يعينه، وقوله: (شجاعةً، حميَّةً، رياءً) مفاعيل لأجله، توضح الغرض والغاية التي من أجلها قد يقاتل الرجل، كما دلت صيغة المضارع في الفعل (يقاتل) على أن ذلك القتال بدافع هذه الأغراض يتجدد ويتكرر بشكل مستمر، فالربط بين الجمل الثلاث: (يُقَاتِلُ شَجَاعةً، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ رِيَاءً) بالواو العاطفة لتحقق وجود المناسبة بينهم وهي أنها جميعا بواعث وغايات يقاتل الرجل من أجلها، وعند تأمل الترتيب بين الجمل الثلاث

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (١٩٠٤)، والبخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد (٢٨١٠)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد ٣٣/٦، وفي الكبرى ١٦/٣، وابن ماجة في الجهاد (٢٧٨٣)، والطيالسي في مسنده (٤٨٧، ٤٨٨)، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٦٨/٥، وأحمد في مسنده ٣٩٢/٤، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٧.

-ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٥٦٣/٣٢.

يُلحظ أن السائل قدَّم في كلامه القتال بدافع الشجاعة أولا؛ لأنها الأهم عند العرب، فطالما تفاخروا في أشعارهم بالشجاعة والفروسية، فهي أعز أخلاقهم وأثمنها، ثم ذكر بعدها القتال بدافع الحميَّة والدفاع عن الأهل والعشيرة، ونصرتهم في الحق والباطل، وبسبب تلك الحمية كان العرب قبل الإسلام في تناحر دائم، وحروب مستمرة لسنوات وسنوات، إذ كانت تحكمهم العصبية القبلية، ثم ذكر ثالثا القتال بدافع الرياء والسُمعة، وهذا الغرض من القتال لم يكن له من الرغبة القوية عندهم ما كان للدافعين الأول والثاني.

ثم كان سؤال السائل بعد عرضه للبواعث التي من أجلها يقاتل الرجل: (أيُّ ذَلِكَ في سبيلِ اللهِ؟) فالفصل لكمال الانقطاع بلا إيهام، لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، ثم كان السؤال بـ (أي) التي: (للسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما)[1]، وهي مضافة إلى اسم الإشارة بعدها (ذلك) المشار به إلى ما تقدم من ذكر أحوال المقاتل وبواعث قتاله، فدلت الإشارة إليها على تمييز هذه الأسباب في نفس المقاتل، أما لام البعد فدلت على سمو هذه البواعث وقوة تأثيرها في تحفيز رغبة المقاتل للقتال، وقوله: (في سبيلِ اللهِ) شبه الجملة خبر لاسم الاستفهام (أيّ)، والسبيل معناه اللغوي الطريق، وإضافته إلى الله –عزَّ وجلّ– يعني طريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى جامع يشمل كل عمل خالص قُصد به وجه الله الكريم، إلا أن كثرة استعماله على الجهاد صار وكأنه مقصور على الجهاد في سبيل الله، فأشارت الظرفية في حرف الجر (في) إلى تمحور سؤال السائل على معرفة أي هذه البواعث داخلة في محض الطرق الموصلة إلى القرب من الله، والفوز برضوانه.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، ت إبراهيم شمس الدين: ١١١، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٣٣م.

فقال رَسُولُ اللهِ – صلّى اللهُ عليه وسلم–: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، فهو في سبيلِ اللهِ"، فجاء جوابه –عليه الصلاة والسلام– غاية في البلاغة والإيجاز وإصابة حاق المعنى؛ "لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله احتمل أن يكون ماعدا ذلك كله في سبيل الله، وليس كذلك، فعدل إلى لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة"[(١)]، واللام الداخلة على الفعل (لتكونَ) لام التعليل، فأفادت ضرورة توجه باعث القتال فقط لإعلاء كلمة الله، والمراد بـ(كلمة الله): هي (دعوة الله إلى الإسلام)[(٢)]، فاشترط توجه نية المقاتل وإخلاصها لنصرة الدين ابتغاء إعلاء شأنه، والضمير (هي) ضمير فصل يفيد القصر، أي قصر القتال في سبيل الله على إعلاء كلمته ونصرة دينه ونفي ماعدا ذلك، قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، بحيث يكون الباعث الأوحد للقتال هو قصد إظهار الدين ونصرته ليس إلا، فدلَّ ذلك على أن المعوِّل في قبول الأعمال النية الخالصة لله –عزّ وجلّ.

وجملة (فهو في سبيلِ اللهِ) معطوفة على جملة (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا) بالفاء الفصيحة التي أشارت إلى العطف على محذوف، والتقدير: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فقتاله قتال في سبيل الله)، وتكرار قوله: (في سبيل الله) مع جواز حذفه لوجوده في السؤال؛ فيه تأكيد أن الفضل الذي أعده الله للمجاهدين يختص بمن قاتل لإعلاء كلمته سبحانه وتعالى، وليس لغرض آخر من أغراض الدنيا، فالجهاد في سبيل الله من أعظم الطاعات وأجلها، فإذا كان

(١) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٥٦٢/٣٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت عبد العزيز عبد الله بن باز: ٢٨/٦.

القتال لغرض من أغراض الدنيا فلا شك في بطلانه، ومن ثَم يُذم القتال إذا كان لحظ النفس من شجاعة وحمية ورياء دون طاعة الله سبحانه وتعالى.

-عن أبي هُريرة-رضي الله عنه- قيل يا رسولَ اللهِ مَنْ أَكرمُ النَّاسِ؟ قال: "أتقاهم". فقالوا: ليس عن هذا نسألُكَ، قال: "فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ". قالوا: ليس عن هذا نسألُكَ. قال: "فعَنْ مَعَادِنِ العربِ تسألون؟ خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهُوا". رواه البخاري(١)

كان من عادة الصحابة -رضوان الله عليهم- أن يسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مثل هذه الأمور؛ لحرصهم الشديد على تحصيل العلم، ولمزيد عنايتهم بمعرفة الأمور التي يحصل بها الارتقاء ونيل الدرجات العلا، وفي بناء الفعل (قيل) للمجهول إيجاز من الراوي، ليتوفر الكلام على الغرض المقصود منه دون إشغال السامع بشيء إلا ما عُقد عليه الكلام، وفي ندائه -عليه الصلاة والسلام- بحرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد؛ لبيان بُعد مكانة المسؤول من السائل، ثم في تقديم النداء على السؤال مزيد تأدب وتلطف معه -صلى الله عليه وسلم- كما يشير أيضا إلى مزيد عنايتهم بالأمر الذي يسألون عنه، وحفاوتهم به؛ لأهميته، والسؤال في قولهم: (مَنْ أَكرمُ النَّاسِ؟)، والكريم هو: (الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، وهو اسم جامع لكل ما يُحمد)(٢)، وكان السؤال بصيغة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء(٣٣٥٣، ٣٣٧٤، ٣٣٨٣)، وفي المناقب (٣٤٩٠،٣٤٩٣،٣٤٩٦،٣٥٨٨)، وفي التفسير (٤٦٨٩)، وفي الأدب المفرد ٥٨/١، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل- باب فضائل يوسف عليه السلام (٢٣٧٨)، والنسائي في الكبرى ٣٦٧/٦.

-ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي: ٢١٣/٣٨.

(٢) لسان العرب: مادة (ك ر م).

أفعل التفضيل؛ للدلالة على حرصهم الشديد على تحصيل أعلى المراتب في القيم والأخلاق، فالسؤال عن أولى الناس وأحقهم بهذا الوصف الجامع لكل أنواع المكارم والفضائل.

فكان جوابه –عليه الصلاة والسلام– جوابًا شاملا وجامعًا، فقال: (أتقاهُم)؛ فأخبرهم بأكمل الكرم وأعمِّهِ وأشملِهِ، وجاءت الإجابة على صيغة أفعل التفضيل أيضا ملائمة للسؤال، بمعنى أكرمهم أشدهم تقوى، وهو موافق لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، فالتقوى سبب كل خير في الدنيا والآخرة، ومفتاح كل فضل، وهي مرتبة عالية من الفضل لا تنال بالهوينى بل لا بدَّ من ترويض النفس بمزيد من الصبر والمجاهدة لتكون قادرة على تحقيق الصدق والإخلاص في القول والعمل، والمسند إليه محذوف، تقديره: أكرمهم أتقاهم، فالحذف لوجود قرينة في السؤال تدل عليه، وللمبادرة إلى تحقق الغرض المطلوب.

والفاء في جملة: (فقالوا: ليس عن هذا نسأَلُكَ) رتبت قول الصحابة على جوابه –عليه الصلاة والسلام– بلا ريث ولا مهلة، فبيَّنوا له –عليه الصلاة والسلام– أنه لم يكن هذا مرادهم من السؤال، ويحتمل أنه –صلى الله عليه وسلم– قد علم مرادهم إلا أنه عدل عنه إلى أسلوب الحكيم؛ لبيان أن الأحرى بهم أن يسألوا عن هذا؛ لأن الكرم لا يكون إلا بالتقوى، فالتقيُّ هو أكرم الناس وأشرفهم منزلة عند الله –جلّ وعلا– مطلقا دون النظر إلى نسب ولا حسب ولا جاه أو مكانة، يقول القاري: (فلما تبين له –صلى الله عليه وسلم– أنهم لم يسألوه عن الكرم المطلق وظن أن مرادهم الجمع بين النسب والحسب)[1]، قال –عليه الصلاة والسلام–: "فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ"، فالفاء فصيحة

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ١١٦/٧.

أشارت إلى العطف على محذوف، تقديره: (فأكرم الناس يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ)، فحُذِف المسند إليه لتعيينه ودلالة السياق عليه، فقد اجتمع لنبي الله يوسف –عليه السلام– خيرا الدنيا والآخرة وشرفهما من حيث شرف النبوة والعلم وكرم الآباء والحكم والعدل وغيرها من الفضائل الكريمة التي اكتملت فيه –عليه السلام.

قالوا:(ليس عن هذا نسأَلُكَ)، فتبين له –صلى الله عليه وسلم– أنهم يسألون عن شرف النسب، قال –عليه الصلاة والسلام–: "فعَنْ مَعَادِنِ العربِ تسألون؟ خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهُوا"، إن تدرجه –صلى الله عليه وسلم– في الإجابة عليهم يدل على معرفته بوجوه المسئول عنه، وجميع الأمور التي تتعلق به، حيث أجابهم أولا بأكمل الكرم وأشمله الذي هو أصل لكل خير ألا وهو التقوى، ثم أجابهم ثانيا بكرم النسب وأشرفه فذكر نبيَّ الله يوسف –عليه السلام–، ثم علم أن مرادهم قبائل العرب، فقال: "فعَنْ مَعَادِنِ العربِ تسألون؟"، فدل العطف بالفاء على ترتب المعاني وتلاحقها وإيجازها، والاستفهام تقريري، وقد حذفت همزة الاستفهام، والتقدير: أعن معادن العرب تسألون؟، وكان تقديم الجار والمجرور على الفعل تسألون؛ لأنه الأهم، والعناية بتوضيحه أعنى، والمراد بمعادن العرب أي: (أصولهم التي يُنسبون إليها ويتفاخرون بها)[١]، فشبَّه –عليه الصلاة والسلام– أصول العرب بالمعادن؛ (لما فيها من الاستعداد المتفاوت) [٢]، أي أن منهم ما يكون قابلا لفيض الله وفتوحاته، فيغنم الخير الكثير، ومنهم ما يكون غير قابل لذلك فيُعرِض ويَصُدُّ عن فضل الله ورضوانه، وذلك هو الخسران المبين.

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت عبد العزيز عبد الله بن باز: ٦/٤١٤.

(٢) السابق: ٦/٤١٤.

وقوله –صلى الله عليه وسلم–: "خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهُوا"، بيان وإيضاح لما أُبهم في جملة السؤال قبلها (فعَنْ مَعَادِنِ العربِ تسألون؟)، والبيان والمبين كالشيء الواحد، فالفصل بين الجملتين لكمال الاتصال، ويجوز أن يكون لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، وقوله: (إذا فَقِهُوا) قيدٌ دلَّ على أن الأفضلية لمن جمع بين شرف الخصال المحمودة في الجاهلية وشرف الإسلام بالخصال المحمودة شرعا مع التفقه في الدين، فأفاد حرف الجر (في) في قوله: (خيارهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ) تمكن هذه الخصال المحمودة منهم واستقرارها فيهم زمن الجاهلية، وثباتها في نفوسهم زمن الإسلام بحيث أنها لم تفارقهم، والمراد بالفقه: (العلم المقرون بالعمل وهو حاصل التقوى)[1]، أي العلم بأحكام الشريعة وضوابطها والعمل بمقتضاها، فمن كان شريفا في الجاهلية ذا خصال ومكارم محمودة ثم أسلم وفَقِهَ في الدين مع كونه محافظا على شرف الأخلاق فقد حاز الفضل كله، ومن كان كذلك في الجاهلية وأسلم ولم يتفقه في الدين فهو في مرتبة أقل مما قبله، أما من لم يُسلم وظل على كفره، وكان ذو حسب ونسب، فقد هدم شرفه ونسبه، وضيَّع حسبه بكفره وعناده، ولم يغن ذلك عنه من الله شيئا.

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني: ١١٦/٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله، بعد هذه الرحلة الماتعة مع كلام سيد الخلق، سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– خلصت هذه الدراسة الموجزة إلى النتائج التالية:

–كان لحروف المعاني أثر فَعَّال في بناء الجمل من حيث دلالتها على المعاني المقصودة والتي لا يمكن أن تُؤدى بدونها أو من حيث الربط بين أجزاء الجملة الواحدة أو ربط جمل الأحاديث وضم بعضها إلى بعض، فكانت بمثابة العُرى التي وصلت المعنى السابق باللاحق حتى تضامت أجزاؤها وصارت جملة واحدة لا يحسن السكوت عليها إلا بآخر كلمة منها.

–اختلاف دلالة حرف المعنى باختلاف المقام، وأبين مثال على ذلك حرف (الفاء)؛ فقد تؤدي الفاء معاني مختلفة في الحديث الواحد، عندما تكون عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب بأصل معناها، فتدل على تتابع المعاني وتلاحق الأحداث بلا مهل ولا ريث، وقد تكون سببية فتدل على أن ما بعدها سبب وعلة لما قبلها، وقد تكون فصيحة فتفصح عن محذوف وهو الشرط، وعندما تقترن بجواب الشرط تفيد ترتب الجواب على الشرط، وارتباط الكلام بعضه ببعض.

–كثر التوكيد في مستهل الأحاديث الشريفة وفي ثناياها بأكثر من مؤكد وبخاصة التوكيد بـ(إنَّ) واسمية الجملة والقسم والقصر بتقديم المسند على المسند إليه أو النفي والاستثناء أو إنما، والمتحدث هو الصادق المعصوم الذي لا يحتاج إلى تأكيد كلامه، وإنما كان التوكيد بأساليب عدة؛ ليقذف في قلب السامع عنايته الشديدة بمضمون المعنى، وحرصه –عليه الصلاة والسلام– على بث المعنى مؤكدًا راسخا في قلب سامعيه؛ لأنه يتعلق بأمن الأمة ووحدتها، ولتعزيز مبدأ الامتثال بالأحكام الشرعية والالتزام بها.

-جاء النداء بالحرف الموضوع لنداء البعيد (يا)؛ لفتًا منه -صلى الله عليه وسلم- إلى عظم المعاني التي نودي الصحابة من أجلها، أمَّا إذا كان النداء من الصحابة له -عليه السلام- بحرف النداء (يا) رغم قربه منهم؛ فيكون إشعارًا منهم بعظمته -صلى الله عليه وسلم-، وإذعانًا ببُعد مكانة المسؤول من السائل.

- دور حرف الجر (الباء) -التي للإلصاق- المؤثر في تجسيد المعنى الملازم لها، وإبرازه محسًا مشاهدًا؛ إذ تومئ إلى قوة الملابسة والملازمة بين الحدث والزمن واندماجهما معا.

- دور حرف الجر (على) المهم في تجسيد معنى الاستعلاء والسيطرة والهيمنة الملائمة لمعاني التعالي والتباهي والاستطالة على الغير.

-إيثار التعبير بحرف من حروف المعاني دون آخر ملائمة للسياق، كمجيء الباء التي للإلصاق مكان (مِنْ) في قوله -عليه الصلاة والسلام-: (فهو يُنزع بِذَنَبِه)؛ مما يومئ إلى قوة الملابسة والملازمة بين الحدث (النزع) وبين المنزوع (الذَنَبِ) واندماجهما معا؛ مبالغة فيه حتى إن محاولة إخراجه مما أقحم نفسه فيه قد تودي بهلاكه لا محالة.

-إيثار التعبير بالمصدر المؤول عن طريق (أنْ) المصدرية الداخلة على الفعل المضارع دون الصريح؛ لدلالة الفعل على الحدث والزمن معا، فيفيد تجدد الحدث واستمراره دون انقطاع، وهذا مما يقتضيه المعنى ويتآلف والسياق الذي ذُكر فيه، بخلاف المصدر الصريح الدال على الحدث مجردًا عن الزمن.

-كثر الإيجاز بالحذف من رواة الأحاديث؛ لتخليص كلامهم من التوابع التي قد تشغل السامع، فوجهوا عنايتهم بما له صلة بالغرض المقصود، وهذا يعكس مدى بلاغتهم- رضي الله عنهم-؛ إذ يكتفون في كلامهم بما ينصب على المراد ويحذفون ما سواه.

ثبت المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

١-الإتقان في علوم القرآن، للحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت مركز الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، المانة العامة للشؤون العلمية.

٢- أسرار الحروف، أحمد رزقة، دار الحصاد للنشر والتوزيع بدمشق، ط١ ١٩٩٣م.

٣- إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد الطيب، ت السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط١ ٢٠٣٣م.

٥- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط١ ١٤٣٥هـ.

٦-البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث بالقاهرة

٧- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام الحافظ أبي العلىّ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبار كفوري، راجعه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر لطباعة والنشر والتوزيع.

٨- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، ت د فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط١ ١٩٩٢م.

٩-الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الحسين بن عبد الغفار الفارسي النحويّ، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت-لبان، ط١ ٢٠٠٧م

١٠- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للإمام أحمد بن عبد النور المالقي، ت أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ.

١١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.

١٢- سنن ابن ماجة بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، ت الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط١ ١٩٩٦م.

١٣- سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ت شعيب الأرنؤوط، محمد كامل، دار الرسالة العالمية دمشق، ط ٢٠٠٩م.

١٤- سنن النسائي المجتبى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت محمد رضوان مرقوسي، محمد أنس مصطفى، دار الرسالة العالمية، ط١ ٢٠١٨م.

١٥- شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة عابدين القاهرة، ط٢ ٢٠١٠م.

١٦- شرح صحيح البخاري لابن بطال أبي الحسن عليبن خلف بن عبد الملك، ضبطه أبو تميم ياسر ابن إبراهيم، مكتبة الرشد بالرياض.

١٧- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، الإمام الحافظ ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان.

١٨- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، دار الفكر للطباعة والنشر.
١٩- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
٢٠- القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط٨ ٢٠٠٥م.
٢١- قوت المغتذي على جامع الترمذي، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي، ت ناصر ابن محمد بن حامد الغريبي، ١٤٢٤هـ.
٢٢- الكتاب، لأبي بشر عثمان بن قنبر (سيبويه)، ت عبد السلام محمد هارون، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٦م.
٢٣- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ت د عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ ١٩٩٨م.
٢٤- الكواكب الدراري المسمى صحيح البخاري بشرح الكرماني، دار إحياء التراث العربي بيروت–لبنان، ط١ ١٩٣٧م.
٢٥- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور: (ح ر ف)، دار الحديث القاهرة ٢٠١٣.
٢٦- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، ت الشيخ جمال عيتاني، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط١ ٢٠٠١م.
٢٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١ ٢٠٠١م.

٢٨- معاني الحروف للإمام أبي الحسن علي بن عيسى الرُّمانيّ النحويّ، ت الشيخ عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت، ط١ ٢٠٠٥م.
٢٩- معجم التعريفات، للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة.
٣٠- معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، أ.د فاروق عبده فلية، د أحمد عبد الفتاح الزكي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالاسكندرية.
٣١- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت أ.د محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب بالقاهرة، ط١ ٢٠٠٤م.
٣٢- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٩م.
٣٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، للإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد ابن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا-بيروت ١٩٩١م.
٣٣- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام الحافظ أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت محيي الدين ديب مستو، يوسف علي بديوي، دار ابن كثير دمشق-بيروت، ط١ ١٩٩٦م.
٣٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، قدَّم له علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، ط١ ١٤٢١هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٩٠٩
التمهيد	١٩١٢
المبحث الأول: النهي عن العصبية الجاهلية والتحذير منها. ويتضمن مطلبين:	١٩١٨
المطلب الأول: المراد بالعصبية الجاهلية.	١٩١٩
المطلب الثاني: تحريم العصبية الجاهلية والنهي عنها.	١٩٣١
المبحث الثاني: النهي عن التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب.ويتضمن المبحث مطلبين:	١٩٤٥
المطلب الأول: النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب.	١٩٤٦
المطلب الثاني: النهي عن الطعن في الأنساب.	١٩٥٩
المبحث الثالث: التقوى أساس التفاضل عند الله. ويتضمن مطلبين:	١٩٦٩
المطلب الأول: الناسُ في الأصل أُمَّةٌ واحدةٌ.	١٩٧٠
المطلب الثاني: التفاضل في الإسلام بالتقوى والعمل الصالح.	١٩٨١
الخاتمة	١٩٩٠